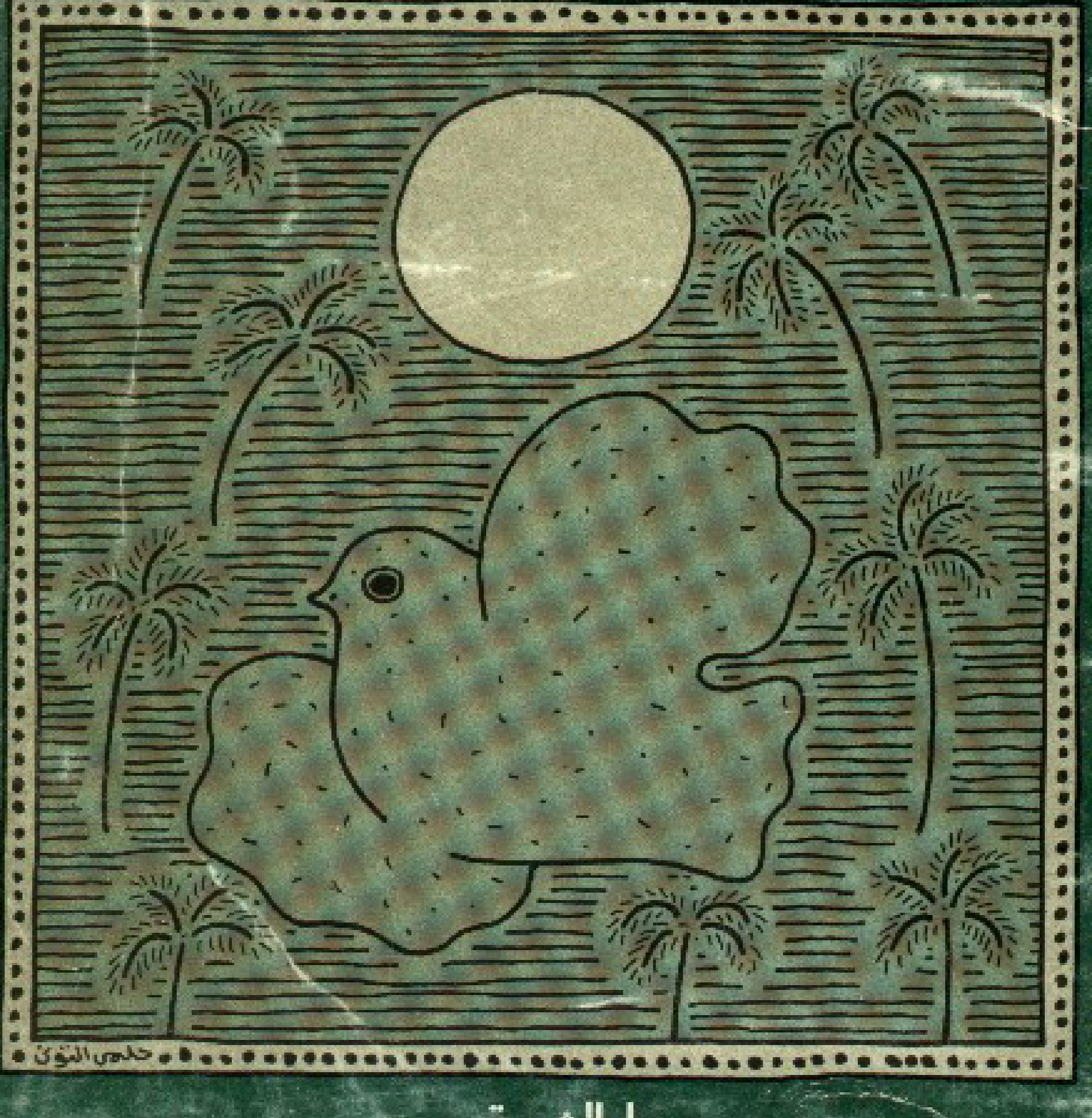
أنيس منصور

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م
الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

طلع البدر علينا

دار الشروق

أيّام في الأراضي المقدسة

أريـد ..
ولـكنى لا أسـتطيع !!

الآن فقط عذرت كل الذين انفتحت لهم « طاقة القدر » وأتيحت لهم فرصة العمر أن يطلبوا من الله شيئا . ولكن الصدمة الباهرة أفقدتهم القدرة على النطق ، أو القدرة على أن يرغبوا فى شىء ، وأغلقت أمامهم . وفى وجوههم . ودونهم طاقة القدر . وأظلم كل شىء ، ولم يتحقق لهم شىء .. لأنهم لم يطلبوا شيئا .

وعذرت الذين كسبوا المليون جنيه . ثم ماتوا من شدة الفرحة ، كأنهم خسروها لا كسبوها .

إنها ــ إذن ــ المفاجأة التى لاتقوى مشاعرنا على مواجهتها . أو الوقوف أمامها ، أو الصمود الوجدانى لها .

إنى أحاول أن أصف شعورى . وقد تهيأت للحج . وأحرمت . وتعريت . وتجردت . وأحسست ببرودة النهار والليل . وخفت من كل أمراض الدنيا . وأعددت لها كل ما اخترعه الطب الحديث . وعلم النفس القديم .

وأقمت من نفسى درعا من لحم ودم ، ودرعا آخر من الإرادة واللاإرادة حتى لا أنهار جسميا ومعنويا .

إنى كالذى يريد أن يقفز قناة واسعة عميقة . ولذلك يحاول أن يتراجع إلى الوراء قبل أن ينطلق فوقها .

إنى أحاول أن أرجع إلى سنوات مضت عندما ذهبت إلى القدس . ووقفت أمام حائط المبكى .. ألعن الذين أقاموه والذين عبدوه . وأحسست أن هذا الذى أراه يحسدنى عليه ملايين اليهود فى العالم ! !

وتمنيت لو أن قلوبهم ظلت موجوعة متمزقة على هذا الذى رأيت ولم يروه ..

ولكن الحائط وتاريخه . ودموع المؤمنين به لم يهزنى قدما ولاساقا .

وقبل ذلك . رأيت . ومشيت فى الطريق الذى سار فيه المسيح عليه السلام .. طريق الآلام .. يحمل صليبه ويتهاوى تحته . ورأيت المهد الذى ولد فيه المسيح ، ورأيت الجبل الذى ألقى فيه موعظته الأخيرة . ورأيت الحديقة التى تناول فيها المسيح عشاءه الأخير .. وخانه أشد الناس حبا له . وباعه بفلوس معدودة ..

وأهتز قلبى حزنا على الرسول الذى جاهد من أجل كلمة الله .

ورأيت معبد النور فى طهران .. ودخلت ورأيت سراجا منيرا محاطا بزجاج . وقال لى الراهب :

ـ هذا النور أبدى ! !

وضحكت كيف يكون النور أبديا . . وأنا أستطيع أن أخمده بنفخة من أنفى . وأى طفل يفعل ذلك . وكيف أعبد سراجا صنعه إنسان . ووضع حوله الزجاج . وتحته الزيت ؟! إن النور الذى يجب أن نعبده هو الذى وراء كل شىء . أمامنا . ووراءنا . وفى نفوسنا .

إن النور الأبدى هو الله .

ورأيت معبد « زرادشت » .. ورأيت معبد « بوذا » و « كونفوشيوس » ..

وفى مدينة « كيوتو » باليابان دعانى أحد الأصدقاء لأرى أحدث ما اهتدت إليه العبقرية اليابانية فى العبادة ..

فهم فى اليابان يعرفون أنهم مئات الملايين . اليوم وغدا . وليس فى الإمكان أن يذهبوا جميعا إلى المعابد فى وقت واحد . فى أى يوم من أيام الأسبوع . ولذلك فإن كل واحد منهم أقام معبدا فى ركن من أركان البيت . يتوجه إليه . ويصلى . فما دام الله فى كل مكان .. ففى الإمكان أن يصلوا له فى أى مكان .. فى السيارة .. فى الطيارة .. فى ركن من أركان أى بيت .

وسألونى : ما رأيك ؟!

ورأيت مئات الألوف يتمرغون فى طين الأنهار المقدسة . ورأيتهم يصبغون بالدم وجوههم . ويحرقون بالنار أصابعهم .. كل ذلك عملا بالحكمة القديمة : إن أسرع طريق إلى الله هو الألم !

ولكن .. أى إله . وأى طريق . وأى ألم ؟!

ورأيت أحد الآلهة . وجلست إليه . وشربت معه . وتحدثت وانتقلت منه عدوى الأنفلونزا . وهنأنى وزراء « الدلاى لاما » على هذا الشرف الذى لم ينله أحد من قبل (! !) ..

إنهم يعاشرون هذا الإله ليلا ونهارا . ولكنه لم يتفضل عليهم (بعطسة !) واحدة .. بسعال . أو التهاب رئوى ؟! ولكننى أنا الغريب القادم من بلاد بعيدة قد حبانى بهذا الالتهاب فى أنفى وفى حلق . وهذا الوخز فى جنبى .. فشكرا لقداسته على ذلك ! !

إنهم هم الذين يشكرونه بالنيابة عنى ! !

* * *

أين هذا كله مما أنا فيه ؟!

لقد ابتعدت جسميا . ونفسيا عن هذا الفيض . والذوبان . والتذويب لكل ماحولى . أو على الأصح هذا التذويب لكل أنا . وما حولى كله .. إلى آخر المفردات التى يستخدمها من يذهب إلى بيت الله الحرام .

.. مثلا : الطواف . والسعى . والدعاء . والوقوف . والإفاضة . والنفرة . والرمى .. وكلها مفردات تدل على أن قوة إنسانية تندفع .. أو على أن قوة روحية تدفع هذا الإنسان معا .. أى مع الملايين حول شىء . وإلى شىء .

إن الدين يطلب من كل مؤمن أن يطيع . وأن يكون معا .

وأن يتجه إلى الله . وكل شىء يراه . أو حوله ليس إلا رمزا إلى معنى .. وهذا المعنى قد نبه إليه الرسول من أجل أن يتحقق الخير العام لكل الناس . « وكل الناس » معناها : كل الناس من كل لون . وسن . وأرض . وثوب . وموقع ومركز ويجب أن لا يكون هناك لون أو ثوب . وأن لايكون هناك شىء يميز أحدا عن أحد . فالناس أمام الله سواء .. كلهم قلوب تدق أو لاتدق . أما أجسادهم .. أما عقولهم .. أما أرضهم .. أما لونهم .. فإن هذا لايهم !

إن كل هذا الذى أقوله لم يستغرق إلا دقائق . ولكن كم من الساعات عشت لكى أرى . وكم من الأيام رأيت لكى أعيش ساعة . أو أقل من ساعة ؟!

إن ملايين الناس قد زاحموا . وتدافعوا أمواجا يدوس بعضها البعض ــ وأحيانا يقضى بعضها على بعض ــ حتى أصبح ما يشغل الناس هو : كيف يقفون ليروا .. أو كيف يرون مكانا يقفون فيه . وإذا وقفوا أن يمدوا أعينهم . أو أيديهم .. ليتأملوا أو يقولوا شيئا .

إنى لا أدعى أنى أمضيت الأيام كلها أتأمل فى خلق الله .. فى نفسى . أو فى غيرى .. فإننى لم أكن سعيدا إلى هذه الدرجة . ولكنى سرقت من الناس ساعات قليلة . وحاولت أن أجعل إحساسى بها مكثفا . حاولت أن أنفذ إلى أبعد وأعمق . ولا أدعى ــ أيضا ــ أنى وصلت إلى شىء .. فإن الذى أستطيعه

قليل جدا . والذى أريد أن أعرفه كثير جدا .. إن عمرى قصير .. وعمر الإنسانية كلها قصير . وهذا العمر القصير لايتسع لكل ما أريد . ولذلك فإن القليل الذى أعرفه قد أراحنى بعض الوقت . والكثير الذى لا أعرفه قد عذبنى معظم الوقت . ولايزال . فاللهم أعنى على نفسى حتى أعرف أكثر . وأستريح أكثر .

إن دهشة الناس عندما يرونى حائرا .. ضائعا . أو أكثر حيرة . أو أكثر ضياعا . لايفوقها إلا أن حيرتى أعمق مما يرون وعذابى أفدح مما يتصورون .

إن كل شىء حولى يقول :

ـ إن كل الناس حولى يصرخون . ويلهثون . وهم جميعا مفردات طائشة ملتاعة فى كتاب مفتوح . إن عذابنا لاحد له . ولكن أكثر هذا العذاب من أنفسنا .. فنحن بعيدون عن أنفسنا . ولو نظرنا إلى أنفسنا ماكان حالنا هكذا .

والله يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وهذه مناسبة طويلة عريضة أن نعيد النظر إلى أنفسنا لنعرف أين نحن . من أى شىء .. أين الإنسان من الإنسان .. أين الإنسان من الشيطان .. أين الإنسان من الله ؟!

إن زحام الناس على رجم الشيطان شىء عجيب .

إن الشيطان ليس أمامنا فقط . إنه ليس هناك . إنه فى نفوسنا . وليست هذه الأحجار إلا رمزا .. إن الذى رأيناه فى نهاية الحج يستحق أن نكرره بعد ذلك . بشرط أن نرجم أنفسنا .. فكلنا لبعض شيطان . أو كلنا هذا الشيطان ؟!؟

* * *

هل قلت شيئا ؟!

إنى أحاول أن أبتعد لأرى أوضح ..

إنى كالذى يخاف أن يفتح عينيه على قرص الشمس . ولذلك أحاول أن أنظر إلى الظلال . وأتحسس الدفء . أو أنظر إليها ببعض عينى وقد ارتسمت على الماء .

إنى أخشى أن أفتح فيها عينى .. فأفقدهما إلى الأبد .

والذى يعزينى عن هذه المحاولة .. أنى عندما اتجه إلى الله . فإنى أراه بلا عينين . وأسمعه بلا أذنين . وأحج إليه فى أى وقت . وفى أى مكان ..

إنى الآن أعذر ذلك الإغريقى الذى حكمت عليه الآلهة بأقسى وأقصى درجات العذاب .. ذلك المسكين « تنتالوس » الذى وضعوه فى بحيرة من الماء العذب . وسلطوا عليه الشمس . وكلما احتاج إلى الماء ارتفع الماء حتى شفتيه . وكلما أحنى رأسه ليرتشف الماء .. انحسر الماء . وظل الماء يعلو . ويهبط دون أن يذوقه إلى الأبد !

إن شيئا من ذلك أشعر به ..

كل شىء حولى يقول .. ينطق .. يضىء .. يظهر . وأنا هكذا مغمور بلا أطراف .. لا أستطيع أن أمد عينا . أو يدا إلى شىء .. حتى الكلمات لا أجدها .. إن شيئا قد وقع بينها وبينى . أو بينى وبين قلمى . أو بين قلمى وبين الورق . أو كل الأشياء .. فأنا رأيت « طاقة القدر » ولم أستطع أن أفتح فمى . وواجهت الشمس . ولم أمد عينى . أو كأنى حججت بقلبى . ولكنى لم أر شيئا ..

ولكن .. عندما أعود إلى حيث أستطيع أن أرى أوضح . وأسمع أقوى . وألمس أقرب .. وحيث تصطف الكلمات والحروف والنقط فى خدمتى .. هناك أجدنى قادرا على أن أقول ..

فمعذرة أنى أريد وأحاول . ولكن لا أستطيع ..

فإلى مسيرة فى العبارة . والإشارة . والإثارة . والإنارة .

حتى هذا السطر الأخير .. لم أفقد أملى فى أن أحاول .. حتى آخر نقطة فى هذا السطر !

أنيس منصور

خطوة قصيرة فى طريق طويل

يقول الفيلسوف الهندى « زن » الذى عاش فى الصين وانتشر دينه فى اليابان : « إننا ملايين من قطرات الندى ، استقرت كل واحدة عند تقاطع فى نسيج لعنكبوت على شجرة فى غابة عرضها السماء وطولها السماء . وعلى هذه الملايين تسلطت أشعة الشمس .. تضئ لها قبل أن تبددها .. وفى اللحظات السريعة قبل أن تتلاشى القطرات التى ينعكس عليها الضياء .. ضياء الشمس وضياء بعضها البعض يتساءل الجميع : ومن نحن ؟ ولماذا هنا ؟ وإلى متى هنا ؟ وما معنى أى شىء ؟ ـ هى التى تسأل . فهل تستطيع أن تجيب ـ أنا الذى أسأل . ولاشىء يدل على أنها تقاوم التلاشى والاختفاء فى نور الشمس إلا هذه الأسئلة والأمل فى العثور على شىء له معنى » وإلا مثل هذه السطور ..

منذ الطفولة بدأت هذه الرحلة . منذ اللحظة التى سمعت فيها ونحن أطفال كلمات : الله والنبى والجنة والنار .. وكانت كلها غير واضحة .. ولكن يصحبها كثير من وسائل الإقناع بالكلمات والابتسامات واللعنات .. من الأب والأم والأخوة والناس .. وانغرس فى أعماقنا أن الخير جنة وأن الشر نار . وأن النبى قال ذلك والقرآن يؤكده كل يوم .. وأن هذه أمور لاتناقش ، وإنما نسمعها ونحفظها ولانهمس بها ، ونسكت عليها ، لأن الجميع يسكتون .. سنوات وسنوات وهذه الحقائق قد أصبحت كاللحم والدم ، وكالعين والأنف

والأذن . أضيفت إلى الجسم الإنسانى . أو أقيم عليها الإنسان والإنسانية .

وأول كتاب حفظته وأنا طفل هو القرآن الكريم . ولا أستطيع أن أقول إننى فهمت منه شيئاً . ولكن موسيقى الآيات وروعتها وتكرارها اليومى على لسانى أبقاها فى ذاكرتى ..

وجعلنى موضع تقدير الجميع .. ولم أكن أعرف أننى حققت شيئاً كبيراً إلا يوم ذهب شيخ الكتاب يعلن لوالدى أن ولده قد أتم القرآن الكريم .

وأذكر بوضوح البهجة والسعادة على وجه الجميع .. ولا كيف يقدمونى عليهم . وكيف كنت أتصدر كل مجتمع ولأننى طفل صغير أميل على ذراع والدى وأنام . وكثيراً ما كنت أسمع من يقول : وهل أنت حفظت القرآن الكريم .. إن طفلا صغيراً قد حفظه .. إنه رضا الله .. وعقلك التخين ؟..

فمن رضا الله أنى حفظت ، ولأن عقله تخين والله غير راض عنه . فهو لم يحفظ القرآن الكريم .. وكما هى عادة أهل الريف فى قرية نوب طريف مركز السنبلاوين دقهلية اجتمع الشيوخ والناس الطيبون والعمدة وشيخ البلدة فى بيتنا . وكان البيت قصراً عظيما نسكن فيه ويملكه عدلى باشا يكن . وكان أبى مأموراً لتفاتيش عدلى يكن وعز الدين يكن ونعمت هانم يكن . وفى ساعة مبكرة من اليوم تغيرت ملابسى وتبدلت .. وأحسست بمن يقول لى : لاتلعب اليوم .. فاليوم يومك !

ولم أفهم من هذه العبارة إلا أننى لن ألعب . وإلا أن الحلاق جاء وقص شعرى . وإلا أن بعض الحلوى قد امتدت إلى جيوبى وبضعة قروش إلى يدى . وإلى أن النظرات تغيرت . ولم أفهم بالضبط ما هذا الذى تغير . ولا لماذا ؟ ولكن الناس جميعاً يخيفوننى ويقولون شيئاً لا أدريه . إنهم يؤكدون أن اليوم

مختلف عن أى يوم آخر .. ولكنى خفت ولم أسأل أحداً . وتجىء القبلات من الصغير والكبير تغمرنى . إن هذه القبلات قد عرفتها فقط عندما كنت مريضاً . أو عندما مات أحد أقاربى ، ورحت أبكى عليه . مع أننى لا أعرفه . ولكن رأيت أمى تبكى فبكيت . إذن ما هذا الذى سوف يحدث ؟ ما هذا الشىء الذى تسبقه النظرات والأوامر المشددة والتى تحذرنى من اللعب اليوم . وهل هو اليوم فقط ؟ أو هو كل يوم ابتداء من اليوم ؟ لا أعرف .. وطال النهار .. وجاء الليل على مهل .. وأضىء البيت بالكلوبات .. وجاء أناس كثيرون .. بعضهم يعرفنى ويقبلنى ويضع الفلوس فى يدى .. وبعضهم لايعرفنى . ولكن بسرعة تمتد الأيدى تشير إلىّ .. والقبلات بعد ذلك .. وأنا خائف .. ما الذى ارتكبته .. لاشىء واضحاً فى رأسى فى ذلك الوقت ..

وبعد أن تعلقت الأضواء جاء الليل بسرعة كأنه كان ينتظر المصابيح لينسلل إلى عينى وأنام فى ركن من أركان الغرفة . ويوقظنى الجميع .. وتتردد عبارات تدوى فى أذنى : يابختك .. الجنة لك .. ادع لنا !..

وتحدث الناس فى أشياء كثيرة . لا أعرف ماهى وتناولوا العشاء . فقد ذبحت بعض الأغنام .. وطلع النهار . وعرفت أن هؤلاء الناس جاءوا يباركون الطفل الذى باركه الله . وكان همى أن أعرف هل اليوم التالى مثل الأمس . أم أن كل شىء قد انتهى . لم أجهد نفسى فى فهم شىء . فقد عاد كل شىء إلى ما كان عليه . والذى سافر . الناس اختفوا . عاودت اللعب فى الشارع ..

وفى العام التالى دخلت المدرسة .. وكان معروفاً لدى القليل أننى أحفظ القرآن الكريم .. ومئات من أبيات الشعر ، فى مقدمتها الشعر الذى نظمه أبى فى التصوف وفى الهجاء وفى الغزل .. وقصائد طويلة لشعراء آخرين .. وأعتقد أننى

ماكنت أفقه منها إلا القليل .. ولكن قدرتى على حفظ الجيد من الكلام قد تأكدت . فأنا تلميذ مختلف .. وهذا واضح ـ أو هكذا كان المدرسون يقولون ..

والتقيت بأطفال معى من أديان مختلفة . ولم أعرف معنى الأديان المختلفة . ولا أحسست بها ونحن نلعب . ولكن مانسمعه حولنا وفى بيوتنا جعلنى أنظر إلى هؤلاء الأطفال نظرات مختلفة . وأحاول أن أجد فيهم شيئاً مختلفاً . وأصبحت صداقتهم خطراً ، وأصبح التحدى هو لعبتنا نحن الصغار . فنحن نلاعب أطفالا من أديان مختلفة وكان اللعب معهم دليلا على أن الأطفال من كل دين هم الأطفال . وأن لاخلاف بينهم . ولكن لأسباب أخرى خارجة عن صفاء الطفل وبساطته ، نقيم الفواصل والحدود الشائكة .. ثم أصبح هذا الخلاف واضحاً . ففى حصة الدين يجتمع أطفال ، ويخرج أطفال . وعند الصلاة يذهب أطفال إلى الجامع وآخرون إلى الكنيسة وفئة قليلة إلى المعبد .. ولم نفكر ونحن صغار فى هذه الفوارق كثيراً . رغم أننا نسمع كثيراً حكايات ونوادر عن أبناء الديانات الأخرى كيف أنهم وراء النعومة ثعابين ، ووراء السكون سكاكين . وكنا نسمع ذلك ونصدقه . ولكن لانجده بين هؤلاء الصغار .. وكان يقال لنا : إنهم صغار . لايعرفون . وعندما يكبرون سوف يكتشفون ذلك !

ولا أعرف إن كان هو التحدى ، أو الشعور العميق هو الذى جعلنا ونحن طلبة فى المنصورة الثانوية نفكر فى تشكيل جمعية دينية اسمها « جمعية المفكرين الأحرار » ولا أعرف من أين اهتدينا إلى هذا الاسم الغريب . الذى لاعلاقة له بالدين . أو مفروض أن ينطوى على التحرر من كل فكر سابق أو دين . ولكن يبدو أننا اخترنا هذا الاسم للدلالة على أننا بحريتنا اخترنا البحث فى الدين . وكنا

أربعة . واحد أصبح شيوعياً عنيداً والثانى أصبح فعلا من رجال الدين المسيحى . وهو الآن فى أثينا . والثالث يعمل فى الإذاعة الإسرائيلية من تل أبيب .. وأنا .. ولم يكن هناك أى تدبير أو تفكير .. ولكننا مجموعة من الطلبة نسكن فى شارع واحد فى المنصورة كان اسمه شارع كوهين . وكنت أسكن فى رقم ٩ .. جيران . ولم نتناقش فى الدين إلا قليلا . وإنما كنا مشغولين بالشعر والفلسفة والتاريخ .. وكانت لنا عادة لا أعرف كيف تكونت وهى أن يقرأ كل واحد منا كتاباً ، ثم نجلس على النيل فى المنصورة نلخصه . ونتناقش بعد ذلك .. ونفترق .

وفى الجامعة لايزال الدين نوعاً من المغامرة أو المخاطرة . أو الشىء العجيب وقد تخصصت فى دراسة الفلسفة . أو الفلسفات والأديان . ومقارنتها . وقرأت التوراة ولا أدعى أننى أخذتها مأخذ الجد . ولكن أفزعتنى قصصها الجنسية الفاحشة . ولم أفهم لذلك معنى ولا سألت أحداً . واستهوانى من الأناجيل إنجيل بولس الرسول . وربما كان بولس أقرب كل الحواريين إلى الفلسفة اليونانية ، وقرأته باللغة العربية . ولم تعجبنى لغته . وترجمته من الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة العربية السهلة . وما أزال أحتفظ بهذه الترجمة !

ولا أعرف لماذا فعلت ذلك !

وقرأت « دلالة الحائرين » للفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين الأيوبى . وكان هذا الكتاب يستهوينى طويلا لأنه مكتوب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكانت فرصة للتمرين على قراءة اللغة العبرية . ولا أقول إننى فهمت شيئاً مما قرأت . ولكنها كانت فرصة لإشباع الرغبة فى التحدى . تحدى ماسمعت ولم أفهم عن الأديان الأخرى . وأبناء الديانات

الأخرى . وكان من أساتذة كلية الآداب فى ذلك الوقت مستشرق يهودى ألمانى يوغوسلافى اسمه : باول كراوس . وكان شخصية فذة . وكنت من المعجبين به . ومن التلامذة المتابعين له . وكنت أحضر دروسه . ولم يعرف إلا فى نهاية العام أنى تلميذ متطوع فقط . وأن تلامذته قد هربوا منه . وكانت صدمة هائلة له . فقد ألقى الكتب على الأرض وداسها بحذائه . فقد ظن أنى واحد من تلامذته المخلصين . ولست واحداً من التلامذة المخلصين للعلم فقط . وكان يدرس « لى » فى ذلك الوقت : ابن الهيثم والرازى وابن المقفع والحلاج .. وكان يأمل فى أن أشترك معه ـ أنا الصغير ـ فى إعداد قاموس يونانى ـ عربى عن الكلمات التى استخدمها المترجمان إسحاق بن حنين وحنين بن إسحاق والمعاصرون لها . عندما نقلوا الحضارة اليونانية إلى اللغة العربية !

وبهرتنى دراسة الفلسفة . وأحسست أن أنواعاً جديدة من العدسات الملتصقة قد ركبت لعينى . وأن دنيا جديدة بألوان جديدة ومسافات جديدة قد ظهرت . ومن العجيب أنها ظهرت فى نفس الأماكن التى اعتدت ألا أراها فيها . الناس لهم معنى آخر . العلاقات لها دلالة أخرى : الله والعالم والناس والقيم الأخلاقية والقيم الجمالية والنفس والحياة والموت والمادة والروح والعظماء والأبطال والأنبياء والقديسون والحواريون والصحابة والتابعون والدراويش .. وقفزت كلمة جديدة أصبحنا نسرف فى استخدامها بلا خوف : الإلحاد .

وشجعنا على استخدامها أننا كنا نتردد على بيت الأستاذ العقاد فى مصر الجديدة . كان هو لايبالى بشىء وفى إحدى المرات أخذ الأستاذ العقاد يتكلم عن الله والسماء والأرض . ويقول : كيف يخلقنى الله فى عصر يعيش فيه هؤلاء البهائم ـ ويشير إلى عدد من الحكام والوزراء وأساتذة الجامعة !

وعندما يفرغ الأستاذ العقاد من هذه العبارة كنا نشعر أن السماء لابد أن تنطبق على الأرض .. أو أن بيت العقاد يجب أن ينهدم فوراً . فقد قال العقاد شيئاً رهيباً ..

وأذكر أنى أحسست أننى فقدت السمع والبصر عندما قال الأستاذ العقاد مرة فى إحدى حالات غيظه : لو أعطيت المادة الأولية لهذا الكون لصنعت كوناً أجمل من هذا !؟..

وقد ضربنا الأستاذ العقاد على رءوسنا . بل إنه فتح رءوسنا وأسقط منها الخوف . ثم أعادها إلى مكانها .. أو إلى مكان آخر من أجسامنا . دون أن يدرى . ولم يكن العقاد إلا مفكراً عظيماً . ومؤمناً عظيماً . ورائداً عظيماً . فقد أضاء لنا كثيراً . وشجعنا . ودفعنا . وملأ عقولنا بالفكر . وملأ الفكر بالاعتزاز . وجعل المفكرين فى قمة البشر . وكان ذلك شعورنا عندما نذهب إلى منزل العقاد (١٣ سليم الأول فى مصر الجديدة) فقد كان اجتماعه يوم الجمعة من كل أسبوع . وكانت المصالح الحكومية تضع الأعلام بمناسبة هذه الإجازة . وكنا نقول لأنفسنا : إن من يذهب إلى العقاد يجب أن ترتفع الأعلام لتحيته !

وفى هذا الوقت أيضاً ظهرت شخصية قريبة منا ولنا . ولكنها شخصية شائكة . بلا أبوة ولا أخوة . ولا إنسانية أيضاً . شخصية أرادت أن تكون باهرة دون أن تهدى أحداً . عالية دون أن يقرب منها أحد . شخصية أرادت أن تكون هناك فوق ولايهمها كثيراً أن يكون أحد مثلها أو قريباً منها . إن هذه الشخصية تشبه « الله » الذى تحدث عنه الفيلسوف أرسطو . فقد كان أرسطو يتصور الله على أنه جالس هناك فوق . وقد أدار ظهره للكون . وهو يدير الكون بظهره ـ احتقاراً منه لشأن الكون والكائنات . ولأن الذى ينظر إلى شىء ، معناه أنه

يهتم به أو يحتاج إليه ، والله لايهتم إلا بنفسه ولايحتاج إلى أحد . فالذى يحتاج إلى شىء : هو الناقص ، والله كامل : إذن لا حاجة به إلى شىء أو إلى أحد ..

ولذلك فأرسطو قد صور الله عالياً بعيداً أدار للكون قفاه . وترك كل شىء يجرى فى القواعد التى وضعها له ..

هذه الشخصية التى تشبه آلهة أرسطو هى : د . عبد الرحمن بدوى ..

فقد كان يدرس لنا الفلسفة اليونانية .. والفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية والفلسفة الوجودية .. لقد كان يهزنا بعنف . يهزنا ويتركنا نلهث وراءه . فهو حاد الملامح . سريع الحركة . له نظرات خاطفة لا مبالية . وإذا حاول أن يكون رقيقاً كان جارحاً . ولكنه كان ساحراً لنا . وكان يرتدى بدلة زرقاء ـ رأيناها أكثر من عشر سنوات ـ وطربوشاً أحمر قاتماً . ويمشى بخطوات سريعة آلية . فإذا دخل القاعة . لم ينظر إلى أحد . لقد جاء ممتلئاً بالعلم . وعلينا أن نستمع . وأن نكتب . وهو يفتح فمه عندما يدق الجرس . ويطبقه عندما يدق الجرس . وكنا نهابه . ولانعرف كيف يمكن أن يكون للإنسان مثل هذا العلم يوماً ما . وقد حاولنا أن نقلده . وأن نخطو خطواته . وأن نحبه وأن نكرهه . ولم يكن هناك اعتدال فى العلاقة به . ففريق يحبه جدا . وفريق يكرهه جدا ..

وأعتقد أننى كنت من الذين يعجبون به . لأن حبه صعب . فالحب يقتضى أن يكون هناك تفاهم ومودة واقتراب أكثر وتضحية واعتياد عليه . ولكن

الوقت . وكل مايمكن أن يقال عنه أنه « موسوعة » فلسفية .. وذاكرة غير طبيعية . وقدرة خارقة على التحصيل . ويستمتع بكراهة الكثيرين . وفى مقدمتهم الأستاذ العقاد . وكان ذلك صدمة لى . فلم أكن قد تعودت أن يزعزعنى أحد فى البديهيات . وكان العقاد من البديهيات . وعبد الرحمن بدوى من البديهيات أيضاً . ولم أعرف كيف أوفق بين الإثنين . ولكن العقاد كان أقرب . فأنا أجلس إليه . وأتحدث معه . وأداعبه . وهو يروى لنا النكت . ويحدثنا عن السياسة . ويسأل عنا . إنها أبوة لانظير لها . ولكن عبد الرحمن بدوى لا هو أب ، ولايستطيع ، ولا هو أخ ولا هو صديق . ولا أعرف كيف يمكن أن يكون هناك لقاء معه أو لقاء به .. ولكنه شخصية تستحق الإعجاب والدهشة ..

وأصبح عبد الرحمن بدوى مثل كل الأبطال الذين نقرأ عنهم ولانجدهم فى حياتنا .. إذن هو شخصية أسطورية . يبدو أنه كذلك . لأن أحداً لم يره يمشى فى الشارع أو يجلس فى مطعم . ولكننا نجده فى المكتبات دائماً .. وبسرعة تغيرت الصورة فقد وجدته فى الشارع وفى المطعم . ووجدته يضحك ووجدت من أصحابه من يخرج معه « ويشتمه » كما يفعل الأصدقاء .. ووجدته حريصاً على المال .. إذن لقد تساقطت علينا معلومات كثيرة تشجعنا عليه وتهز أكتافنا إذا رأيناه .. إنه إذن واحد ككل الناس .. وبطولته الأسطورية من صنع أوهامنا ..

بل إننا جلسنا إلى أستاذ آخر على أعشاب كلية الآداب ، وكان يقرأ لنا الرسائل

عنه ووراءه ..

الأسماء الحسنى على ألسنتنا فى ذلك الوقت : نيتشه وشبلر

ولا أعرف بالضبط مالذى كان يمثله لنا د . عبد الرحمن بدوى فى ذلك

وأصبحت من

واشبنجلر وهيدجر ودلتاى وتسيلر .. وغيرهم من الألمان . الفلاسفة والمؤرخين . إذن لقد وجدنا أنفسنا غارقين فى الفكر الألمانى .

وأقبلت على كل ماهو ألمانى : اللغة والأدب والفلسفة . وأصبح طلبة الفلسفة متميزين بعضهم عن بعض . نحن المثاليون الغارقون فى الإيمان بالمنطق والفكر المجرد والبطولة والصوفية ، والآخرون ماديون واقعيون منطقيون شعبيون .

ولا أظن أن كل هذه المفردات كانت واضحة فى رأسى فى ذلك الوقت . بل لا أعرف أين رأسى من قلبى . وأين قلبى من عقل عبد الرحمن بدوى فى ذلك الوقت . لقد انشغلت رءوسنا وامتلأت وازدحمت ونحن ننوء بها رائحين غادين من المكتبة وإلى البيت .

وبسرعة انتقلت إلى الفلسفة الوجودية . وهذا طبيعى . فالضياع بين الأفكار والمذاهب وتعدد آلهة الفلسفة وعلم النفس وتعدد القبلات والعبادات والكتب الفكرية المقدسة قد محا كل معالمى . ولم أعد أعرف من أنا . فأنا مثل طفل يتغير إسمه كل يوم . فهو لايعرف له أباً ولا أماً ولا بيتاً ولا لغة ولاوطناً . إنه ابن الجميع . ومن صنع الجميع .

وكان لابد أن يتوقف الإنسان عن الجرى وراء كل هذا الذى قرأ وسمع .. وأن تنخفض درجة حرارته .. وأن يلقى بالماء المثلج على رأسه ليفيق من هذه الحمى الفلسفية .. وأن يفتح مظلته الواقية ليهبط برفق على أى أرض صلبة .. أى أرض .. فقد تعب من الدوران حول الذى لايعرفه .. فليس لى كوكب واحد أدور حوله .. إننى أصحو وأنام وفى أثناء النوم يتغير الكوكب الذى أجد نفسى ألف حوله .. فلا أعرف إن كنت من رواد الأرض أو القمر .. الفلسفة الألمانية أو الفرنسية .. الهندية أو الفارسية .. الإيمان أو الإلحاد .. مصريا

غربيا . أو مستشرقاً أو « مستغرباً » مهاجراً أو مهجريا أو مقيماً مصريا وطنيا أو مطروداً من لغتى وأصلى وتاريخى ..

وفى الفلسفة الوجودية وجدت أننى أقول : إننى .. وأقول تجربة .. حياتى .. تاريخى .. حاضرى .. إرادتى .. دينى .. ربى .. مصيرى .. مستقبلى .. نهايتى .. موتى .. قلقى .. فزعى .. وجودى وعدمى ..

فى الفلسفة الوجودية أكدت نفسى . فى مواجهة الذين يجردوننى من كل اعتزاز برأى أو بفكر .. كيف يكون لى رأى أمام فيلسوف عظيم مثل هيجل أو ماركس . أو نيتشه أو شوبنهور .. أو أفلاطون أو رسل أو بيكون أو اسبينوزا .. كيف أنهم تفرغوا للذى لم أستطع أن أتفرغ له .. أضاعوا العمر وأضاءوه بالفكر والوجدان .. أين أنا منهم ؟ كيف أمد يدى فى جيبى وأخرج ملاليمى العقلية وأنا واقف أمام خزائن البنك المركزى . لابد أن أنشغل بما يملك غيرى .. وأن أتحدث عن ثرائهم ، وفى الحديث عن ثرائهم إخفاء لفقرى وعجزى وإفلاسى .. لم يكن من السهل أن أتحدث عن نفسى أو عن الذى فى داخلى أو الذى أريده أن يكون فى داخلى .

وجاءت مع الدكتور عبد الرحمن بدوى « الفلسفة الوجودية » .. والتقطنا الكلمة .. والمفردات التى أدخلها إلى الفلسفة .. وكانت هذه الكلمات تأشيرات دخول وخروج من كل المذاهب الفلسفية والدينية .. ندخل ونخرج كما يحلو لنا .. فلا خوف .. فقد طلينا أجسامنا بالشحم .. فلا خوف من الغرق .. إن أطواق النجاة فى أعناقنا ، فلا خوف أن يجرفنا التيار .. ومن صميم حرياتنا أيضاً أن نقبل ونرفض ما أعجبنا من كل ماكتبه وقاله د . عبد الرحمن بدوى والعقاد وغيرهما !

فقد تجرأت فى إحدى المرات وسألت العقاد ـ لعلك تلاحظ أننى لم أقل الأستاذ العقاد ـ وناقشته فى كتاب صدر له .. ولم يكن الغرض من السؤال أن أقول شيئاً إلا أنى قرأت الكتاب وفكرت فيما قرأت وأن لى رأياً خاصا . ومهما كان هذا الرأى فهو وجهة نظر لطالب صغير فيما كتبه أستاذ كبير . ومن الممكن ألا أحسن السؤال .. ومن الممكن ألا أحسن الفهم .. ولايمكن أن أكون مستخفا بالعقاد أو أحاول أن أحرجه ـ لاشىء من ذلك !

وثار العقاد .. لدرجة أننى لم أعرف ما الذى قاله .. وارتفع الدم فى رأسى طويلا .. وبعد وقت قصير وجدت العقاد يتحدث فى شىء آخر ويضحك .. وانتهت الجلسة .. وفهمت من زملاء ندوة العقاد أن العقاد لم يكن على حق .. وأنه ثار بلا سبب واضح .. وعرفت فى ذلك الوقت أنه هو أيضا من الممكن ألا يكون على حق وأن يثور لسبب ولغير سبب .. ولكن ـ مع ذلك ـ فمزاياه أكثر من عيوبه .. ولم أمتنع عن التردد على بيت العقاد !

وأذكر أننى ناقشت فى إحدى المحاضرات رأياً للدكتور عبد الرحمن بدوى .. ولا أعرف ما الذى قاله .. ولكن لايمكن أن يكون شيئاً مشجعاً .. وأدهشنى ذلك .. ومن غضب الطلبة وضيق المدرسين بعبد الرحمن بدوى . تجمعت قدراتنا على الانفصال عنه .. رغم التأثر العميق به ..

ولم يعجبنى كتابه عن «الوجودية» وأصدرت أنا كتاباً عن «الوجودية» وكان أسهل كتاب وأول كتاب صدر عن الوجودية باللغة العربية . ووزعت منه أكثر من مائة ألف نسخة فى سنة ١٩٥٣ !

وما كتبه عبد الرحمن بدوى عن الوجودية لايفهمه إلا الذين درسوا الفلسفة ، أما الناس العاديون فيستحيل أن يفهموه .. وأعتقد أننى أستطيع مالا يستطيع وكتبت .. إننى إذن أختلف عنه تماماً . ولا يمكن أن أكون مدرسا للفلسفة مع أننى قمت بتدريس الفلسفة اليونانية والحديثة والفلسفة الوجودية فى كلية الآداب سبع سنوات . ولكن قررت ألا أكون مدرساً .. فأنا لا أحب ولا أستطيع فهى مقدرة خاصة . وأنا أريد أن أكون أكثر انطلاقاً فقد تعددت القيود على عقلى وقلبى ولسانى ويدى وساقى .. قيود الطفولة والدين والفلسفة .. قيود الحب والإعجاب والإيمان بالبطولات الفكرية .. وأريد أن أتحرر من الأوثان الإنسانية .. دون أن أحطمها .. فلا أستطيع .. ولست نبيا ولا صاحب دين جديد .. ولاقادراً على صنع تماثيل أخرى ، لى ولغيرى ..

ولكن طالت سنوات الفلسفة .. والتوت سنوات الكفاح من أجل أن أجد نفسى .. قارئاً وكاتباً .. وانشغلت عن كل شىء إلا القراءة .. وكان والدى يقول الحكمة المأثورة : منهومان لايشبعان : طالب علم وطالب مال ! وكنت أنا طالب العلم .. ولم أعرف إلا متأخراً جدا أن الإنسان يجب أن يطلب المال ، ليستطيع به أن يجد العلم فى الكتب أو فى السفر بين البلاد وبين الناس ، لأقرأ هذا الكتاب المفتوح الذى اسمه : العالم .. والذى صنعه الإنسان بيديه ورجليه وعرقه ودمه ودمعه ـ ودمه أكثر ـ طلباً للحرية من الفقر والخوف والمرض والجهل والظلم ..

وابتعدت كثيراً جدا عن عيون الناس لأجد نفسى .. وأغمضت عينى عن كثير من الذين أحبهم ، لعلى أجد شيئاً أو أحداً أحبه .. وعرضت جسمى لكل شمس ، وأعطيت أذنى لكل صوت ، وعلقت أجفانى بكل صورة ، وأعطيت نفسى ، بذلتها ، بددتها ، أرهقتها ، بعثرتها ، نثرتها ، لكى أجمعها وأمسكها وأحرص عليها من جديد ..

ولكنى لم أجد إلا مايفزعنى ، وإلا مايخيفنى .. فبحثى عن الحرية حررنى من الحرية نفسها .. فوجدت نفسى عبداً حبيساً مقيداً بكل هذه الكلمات التى وجدتها فى الوجودية .. حتى أصبحت الوجودية هى لغتى .. ولا أعرف غيرها .. والذى ليس وجودياً ، فلا وجود له .. فالناس نوعان وجوديون ، ولا وجود لهم .. ولكن كيف ؟ هل كل من يختلف معى فى الرأى ، لا رأى له ، ولا معنى له . ولا وجود له . إذن أين هى الحرية .. هل الحرية أن أكون أنا حرا ، ولا حرية لغيرى . إذن ليست حرية هذه .. الحرية لى ولك .. إن أختلف معك أو أتفق معك .. إذن فهذه الوجودية التى تنادى بالحرية تسلبها منى فى أول لقاء ..

ثم هناك أكثر من فلسفة وجودية ..

وجودية ترى أن الله ضرورى ، وأن الأديان أساليب حياة بين الناس .. ولابد لكل إنسان من أسلوب فى الحياة .. والدين أسلوب حياة الشعوب .. لأنه أسلوب حياة الأفراد ، وهناك وجودية ترى أن مشاكل الإنسان العادية معقدة وصعبة .. وأنه لايستطيع أن يحلها كلها ، فكيف يضيف إليها مشاكل أكبر منه مثل : الله والكون والموت والقيامة والبعث والحشر والنشور .. إن الوجودى العاقل هو الذى يعرف أن عقله قاصر ، وأن الله فوق العقل .. وأن الطفل الذى لايعرف كيف يحفظ جدول الضرب ، لايعرف أن يحسب المسافة بين الأرض والشمس ذهاباً وإياباً على أصابعه .. وأن العقل الذى لايعرف ماذا وراء الشمس أو الشموس ، أو لا يستطيع أن يقيس السماء شبراً شبراً . لايعرف من هو الله وماهى « حدود » قدرته .. إذن يجب أن تنشغل الوجودية بحياة الناس .. فقط الحياة ، أما ما بعد الحياة فهو شىء بعد العقل .. ونحن لا نملك إلا العقل فقط !

والذى أقوله اليوم فى سطور ، قد أقام سنوات طويلة فى رأسى .. هزه وقسمه بعضه على بعضه .. وأسقطه على كتفى ، وكسره على يدى ، وأحناه على الورق ، وأضناه على مشاغل الحياة والسعى وراء الأمانى تسحب منى لحظات الإنفراد بنفسى .. وتلقينى على الآخرين معهم وبينهم .. وطالت السنوات .. ورحت أطالب نفسى بتعويض عن سنوات الشقاء والعذاب والحرمان .. وانطلقت من نفسى بعيداً عن الناس وعن الأرض وعن الأهل وعن مصر وسافرت وانفتحت نفسى على كل شىء هناك . وأصبحت لى عادات جديدة فى الحياة وفى الفكر .. ومن بين هذه العادات الجديدة أن أتابع كل ما تخطه أقلام الناس فى الشاطئ الآخر الذى أسافر إليه .. والذى يلفت الإعجاب به والحياة معه .. والسير على هداه .. فما من مفكر كبير ظهر فى ربع القرن الماضى إلا وأعرف عنه شيئاً كثيراً ، أو ألا أجد له كتاباً أو أكثر فى مكتبتى .. وكان من عادتى أن أحتفظ بصورهم .. وبعد ذلك توقفت عن هذه العادة الصبيانية . فقد أغنتنى كتبهم ودوائر المعارف عن ذلك ..

أذكر أننى ذهبت إلى « الدير الدومنيكى » فى العباسية .. وكنت أدرس الفلسفة المسيحية هناك .. وفى يوم وجدت صورة لرجل أعجبت به جدا .. وأريدها .. ولا أعرف كيف أحصل عليها .. ولا أستطيع أن أشترى الكتاب الذى وجدتها فيه .. وطلبت من الصديق الأب قنواتى أن أقتنى هذه الصورة .. وكانت ضحكته الساخرة مقنعة لى .. إذ كان معناها : كيف أنزعها من هذا الكتاب أو كيف أعطيك هذا الكتاب حتى لاتنزعها .

وقررت أن أدع الكتاب مفتوحاً ، لأنظر إليها من حين إلى حين . وبعد ذلك . اشتريت كل مؤلفات الأب تيلار دى شاردان وقرأت أروع ما كتب ..

ووجدت أن أفكاره أروع من صورته .. فهو عالم ورجل دين وفيلسوف وهو قنبلة مضيئة .. تضيء بعنف!

وتوالت الكتب التي تصور قلقي وفزعي وحيرتي .. واختلفت الآراء حول هذا الذي يملأ نفسي ويفيض بها على الورق .. ولم يكن سبب ذلك إلا الغليان في داخلي .. إلا براكين في أعماق ترمي بالحمم على الورق ولكن هذا العذاب هو من شأني أنا .. فالكاتب يتعذب ويكتوى ويتلوى ويتأوه ، ولكن إذا واجه الناس عليه أن يقول مايريح الناس ويفيدهم في حياتهم أو يهديهم إلى ماهو أفضل .. فالذي يقدم طعاماً للناس لايعرض عليهم أدوات المطبخ ، ولا يأتي بالفرن بينهم .. فيصيبهم شرر من النار .. فليس هذا من شأنهم ، إنهم يريدون أن يأكلوا ..

ولكن الكاتب يريد أحياناً أن يعرض على الناس صوراً من عذابه ومن براعته في التخلص من العذاب لعلهم يفعلون مثله .. أو لعله يشعر في لحظة واحدة باقتدار على أن يفعل ما يعجز غيره عن فعله . ولذلك نجد الكثير من المطاعم تقدم الطعام وتطهوه أمام الناس .. ويرى رواد المطاعم أن المسافة بين المطعم والمطبخ قليلة .. وأن المودة بينهم وبين الطاهي عميقة .. فلا مسافة هناك .. إنهم أسرة واحدة .. وهذا مايغرى الكاتب في كثير من الأحيان أن يؤكده للقارئ لعله يستريح ـ القارئ يستريح والكاتب أيضاً!

وقد فعلت ذلك كثيراً . ولا أظن أنني استرحت .. لقد كان كل ما أقرأه هو نوعاً جديداً من الوقود .. يجعل النار أكثر التهاباً ، ويجعل ألسنتها أكثر تلوناً ، وزئيرها موسيقياً .. كأنني أقوم بتجميل الشقاء لنفسي ولغيري .. حتى أصبح هذا التجميل أو « التعذيب » ـ أي جعله عذباً ـ أسلوباً في الحياة .. وطال هذا الأسلوب .. وكان لابد أن أهرب منه .

وتوالت كتب أخرى تصور هربي من عذابي .. هربي من حياتي .. ولكن لم أجد لنفسي مخبأ عقليا أو عاطفيا ..

وبدأت دورة جديدة في التردد على المعابد من كل دين ..

وذاب الشمع الذى وضعته فى أذنى ؟!

أصيب الفيلسوف الألمانى نيتشه بالجنون فى آخر أيامه . وفى فترات الوعى العابر والاتزان المؤقت ألف كتابه الرائع «الجنون والحكمة» والذى عرف بعد ذلك باسم «أختى وأنا» . وكانت أخته أيضا على درجة من الجنون . فقد احتشدت الآراء والقراءات والانفعالات فى عقله وصدره حتى انفجر بكل شىء .

وانطفأ نور عقله ونور عينيه ..

يقول نيتشه : ما الذى جرى ؟ إننى مثل عوليس بطل الإلياذة . وقد نصحوه أن يضع الشمع فى أذنيه حتى إذا اقترب من المغنيات الساحرات . لم يقفز من سفينته ويروح ضحية لهن . وقد حرص عوليس على أن يربط نفسه إلى شراع سفينته وأن يقترب من الساحرات . ولكن حدث شىء غريب .. فبدلا من أن تتغنى الساحرات ، فإنهن التزمن الصمت . وعرضن الوجه الجميل والشعر الحرير ، والأجسام الفاتنة . ولم ينطقن بكلمة . وإنما تركن الكلام لبقية أعضاء الجسم .. فماذا حدث لعوليس .. إنه اندفع بسفينته وتحطم على الصخور التى جلست عليها الفاتنات الساحرات .. ولم ينفعه الشمع الذى ملأ به أذنيه . ولا الحبال التى التفت حول جسمه ويديه .. لقد دخلت الساحرات من عينيه دون كلمة واحدة .

ولا أقول إننى هذا العوليس الذى سد أذنيه بالشمع وربط نفسه بالحبال حتى لا يفتنه شىء مما رأى . ولكن هذا الشمع كان طبيعيا فى حياتى . فأنا أريد أن أعرف فقط ولم يكن عندى استعداد لأن أصدق . أو لأن أهتز وأسقط راكعا أو ساجداً . فقد كان أبى رجلا مؤمنا . ولا أعرف لماذا لم يكن حريصا على أن يدفعنى فى طريقه . فقد كان حبى له يجعلنى أفعل كل ما يقول به . وتعلمت منه شيئا واحدا مع الأسف الشديد أو مع كل الأسف : أن أصحو فى الساعة الخامسة من صباح أى يوم . كان يصحو للصلاة وتلاوة القرآن وشرب الشاى بالنعناع وكنت أحب والدى ، وأحب صوته وهو يرتل القرآن وأحب النعناع فى الشاى ..

وكنت أصلى وراءه .. ولا أعرف بالضبط ما الذى كنت أعمله ، أن أصحو معه وأجالسه . وأنام بسرعة وينقلنى إلى السرير .. هل هى حاجة إلى مزيد من العطف ؟ هل سبب ذلك أن والدى كان دائماً بعيدا عنا . نسكن فى بلد وهو يعمل فى بلد آخر . هل هو الشعور بالأمان إلى جواره . ربما كان انعدام الأمان هو الذى جعل طفولتى خائفة . ولم أكن وحدى الخائف . ولكن أمى أيضا . فنحن ننكمش ونتكوم بعضنا إلى جوار بعض خوفا ولكن من أى شىء كنا نخاف . لا أعرف فى ذلك الوقت بوضوح . ولكن كنا حريصين على إقفال الباب والشباك . وكنا نتواصى بألا نسرف فى الإنفاق . حتى نجد فلوسا فى آخر الشهر . ولكن لماذا كل ذلك ؟ لم أعرف . ولكنه الخوف قد تسرب وترسب فى نفوسنا . ربما هذا الخوف الدائم هو الذى جعلنى أتجه إلى شىء ما يجعلنى آمنا . وهذا الأمن لم أجده إلا فى القراءة وإلا فى المذاكرة وإلا فى معرفة الكثير . وكنت تلميذا متفوقا من الظاهر ، خائفا من الداخل .. هذا الانشغال الدائم بالمجهول ، والمجهول كله مخيف . هو الذى جعلنى أتسلح دائما بشىء وليس من

الضرورى أن أحب ما أتسلح به ولكننى كنت كالذى يخاف من البرد ـ ولا أزال ـ فيضع كل ما يصادفه من ملابس وأغطية . فلم أكن أعنى بقيمة هذه الملابس أو جمالها أو ثمنها . إننى فقط أسد الباب فى وجه الريح ..

والذى كنت أفعله فى البرد . كنت أفعله أيضا فى القراءة والرغبة فى المعرفة . أريد أن أحتمى فى الكتاب وأتسلح بالمعرفة .. فقط المعرفة سلاح ولكن لم تكن متعة ولا لذة .

وكنت أسمع ـ ولا أفهم ـ أننا من الأشراف فجدى لأمى صاحب ضريح يزار . بل فى أسرتها أكثر من ضريح وأكثر من ولى وأكثر من رجل صالح . فهى من أسرة الباز فى الدقهلية ودمياط . وفى الأعياد الدينية كان الناس يشيرون إلينا . على أننا متميزون عن الناس فنحن أشراف . وكان أجدادى لأبى من الأشراف أيضا . ومن الأولياء وهم ينحدرون من الإمام شمس الدين الشربينى فى مدينة شربين . ولم أكن أفهم معنى لشىء من ذلك .

ولا أنسى يوم أخذنى والدى إلى مسجد فى أبى حمص من محافظة البحيرة . وكان إمام المسجد اسمه الشيخ روحه . وقدمنى والدى مع كثير من الأعتزاز وهو يقول : ولدى صلاح ـ وكان هذا هو اسمى فى ذلك الوقت ولكن أمى بعد ذلك رفضت أن يكون لى اسمان ـ ولدى صلاح هذا قد حفظ القرآن الكريم والهمزية النبوية والبردة للبوصيرى وقرأ كتب أدب الدنيا والدين والسيرة النبوية لابن هشام ودلائل الخيرات .

وكان رد الشيخ روحه : إن هذا من دلائل الخيرات !

وأعجبنى هذا الرد وحفظته على أنه أول مديح بليغ . ولا أعرف بعد ذلك لماذا كان بعض الناس الطيبين يطلبون منى أن أؤمهم فى الصلاة وأنا صغير .

ولكن عرفت فيما بعد أننى أفضل منهم لأننى أحفظ القرآن الكريم .

ولم أدرك فى ذلك الوقت إن كان هذا كل ما يسعدنى . فلا أعرف قيمة ما حصلت عليه . وإنما أنا طفل ذاكرته قوية . أو هو محب لوالده وسمع منه أجمل أنواع الكلام : قرآنا وأحاديث نبوية وشعرا . وحفظ وراءه وأسعدته سعادة أبيه .

وعندما سافرنا إلى طنطا . تسللت وحدى إلى جوار مسجد السيد البدوى ووقفت أقرأ الفاتحة . وأدعو الله أن يشفى والدى ووالدتى . وأن أنجح فى مدرسة السيدة مباركة الأولية . وبعد أن فرغت من الدعاء اكتشفت أنى توجهت إلى محطة سكك حديد طنطا . فلم يكن هذا هو ضريح السيد البدوى . ورويت ما حدث . وضحك أبى وكان حريصا على أن يروى هذه النكتة لكل الناس . وكان الناس يطيبون خاطرى قائلين : ولكنك توجهت إلى الله . والله فى كل مكان !

وفى امبابة كنت فى « جمعية الإخوان المسلمين » . وكنت أمينا للمكتبة . وألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا . وكان رجلا ظريفا لطيفا . وصفق لقصيدتى عن الهجرة النبوية . وطلب منى أن أذهب للقائه فى المركز العام فى الحلمية الجديدة . وذهبت ولم أستطع أن ألقاه . ولكنه نصحنى بأن ألتقى بواحد من الإخوان وأطلب إليه أن ينشر قصيدتى . وكنت سعيدا عندما ظفرت بالأخ . وكانت جريدة « الإخوان المسلمين » تطبع فى الجورنال ديجيبت . وظللت حتى الصباح أنا وبعض الأصدقاء واقفين أمام باب الجريدة حتى صدرت . وقلبت فى الصحيفة فلم أجد القصيدة . وكانت صدمة وخيبة أمل كبرى . مع أن الأخ .. قد وعدنى ، فكيف يخلف وعده ولا ينفذ أمر الشيخ حسن البنا ..

وبعد أسابيع قليلة وجدت اسمى على باب مقر جمعية الإخوان المسلمين بامبابة من المفصولين والذى يرجى ألا يترددوا على الجمعية إطلاقا . وكانت مفاجأة مفزعة . وعرفت السبب فيما بعد . هو أننا لا نؤدى الصلاة فى أوقاتها .. ثم إننا نستغل مكتبة الجمعية للمذاكرة ونستهلك الكهرباء ولا ندفع الاشتراكات .

واتصل بى أحد الإخوان المسلمين وقدمنى إلى موظف فى شبكوريل . وقال : لقد حدثته عنك كثيرا .

ولم أسأله وما الذى قاله عنى . وذهبت إلى بيت الموظف الآخر . وكان يسكن فى شارع محمد على . وهو يهودى . ويروج للماسونية فى مصر . ودخلت البيت . وكان نظيفا . وقابلنى مرحا . ولكن لم أجد هذا المرح على وجه أحد فى البيت . لا زوجته ولا أولاده . وأعطانى بعض الكتب الفرنسية . وطلب منى أن أقلب فيها . وقلبت ولم أفهم . ولكن الذى بهرنى جدا فى ذلك الوقت أننى وجدت لأول مرة فى حياتى . فاكهة جافة ، فاكهة مصنوعة من الحجر وملونة . شىء عجيب . وهذا الشىء العجيب هو الذى ظللت أحكيه للناس . ومن الغريب أن كل الذين حدثتهم عن هذه الفاكهة لم يندهشوا . فقد رأوها من قبل ، أو موجودة فى بيوتهم . وفقدت حماسى وضويت لسانى تحت أسنانى . ولم أعد أتحدث عن هذه المعجزة !

ولا أدعى أن هذا الشمع الذى وضعته فى أذنى . أو الذى كان فى أذنى . قد بقى فى مكانه ولكنه تحرك قليلا . ونفذ إلى أذنى بعض ما سمعت وما قرأت . وما رأيت . ولكن ما يزال الشمع فى موضعه متينا صلبا يصعب أن أخلعه ..

وعندما عدنا إلى المنصورة كنت مبهوراً بإمام مسجد «الحسينية» صوت غليظ أجش واضح . وكان فخم العبارة . فصيحا . والناس يجيئون من كل مكان ليسمعوه . وكان اسمه الشيخ محمود . ولا أعرف لماذا يحرص الناس عادة على تشويه الجميل . فقد همس فى أذنى واحد من الناس وقال : إنه أكبر حشاش فى المنصورة .. و..

وقبل أن أقاطعه بدهشتى قال : تعال الليلة وأنت تره فوق السطوح .

ولم أنم قبل أن أراه جالسا على أحد الأسطح يضحك ويتمايل . وكان من الصعب على مثلى فى هذه السن الصغيرة أن أضع الصورتين الواحدة إلى جوار الأخرى . وأقبلها . كيف يكون هذا الرجل مفخرة ومسخرة فى نفس الوقت ؟ !

وعرفت أن رجال الكنيسة الكاثوليكية يستغلون الظروف أيضا . فعندما تذهب فتاة للاعتراف بخطاياها تنسى أنها تكشف نفسها وتتعرى أمام إنسان .. كأى إنسان . وأذكر أن صديقا كاثوليكيا قال لى : عندنا نكتة تقول إن شابا ذهب يعترف للقسيس . فجلس أمامه . ولم ينطق حرفا واحدا . فسأله القسيس : ماذا بك ؟ فأجاب الشاب : لا شىء . قال القسيس : إذن لماذا جئت .. هل أنت على صلة بمدام جورج ؟ قال الشاب :

ـ لا

ـ هل أنت على صلة بمدام روفاييل ؟

ـ لا

ـ هل تعرف زوجة شارل ؟

ـ لا

ـ إذن أنت على صلة بجورجيت بنت صمويل ؟
ـ لا
ـ إذن لماذا جئت إلى هنا ؟ قل لى لماذا ؟
فقال الشاب : أبدا .. فقط لكى أحصل على هذه العناوين !

* * *

وفى مصر القديمة يوجد فى مكان واحد ٢٩ مسجدا و٢٠ كنيسة ومعبد واحد يهودى اسمه «معبد ابن عزرا» ومن أهم كنائس مصر كنيسة أبى سرجة .. أو كنيسة القديس سرجيوس . وأهم ما فى هذه الكنيسة «المغارة» التى اختفى فيها السيد المسيح مع أمه ويوسف النجار وبقى فى هذه المغارة ومعهم «حمارة» . وهذه المغارة كانت رومانية .

والعجيب أن الأسرة المقدسة عندما هربت من الرومان الذين هددوا بقتل كل طفل ذكر قد هربت إلى مغارة رومانية ـ وهو شىء بعيد الاحتمال . فلا أحد يتصور أن الهاربين من الرومان سيختفون فى مغارة رومانية . وإن كان اليهود يفسرون ذلك بأن الأسرة المقدسة وهى يهودية قد جاءت تختفى فى منطقة مصر القديمة التى بها عدد كبير من العائلات اليهودية . والمغارة تحت الكنيسة وهى آيلة للسقوط مع الأسف ـ الكنيسة والمغارة . وكانت مياه الفيضان تغطيها . وكان الأصدقاء من الأجانب عندما يرون المغارة يصرخون : كيف تفعلون ذلك بأقدس أقداس المسيحية .

بل إن واحدا منهم قال لى : لماذا لم يهرب المسيح إلى أسبانيا أو إيطاليا .. لو فعل لرأيت كيف يحتفل العالم كله بهذه المغارة !

وأذكر عندما سافرنا إلى أمريكا ، ذهبنا إلى أحد مطاعم لوس أنجيلوس .

وعرفنا أن تحت المطعم يوجد نموذج هذه المغارة . ونزلنا وقابلنا عدد من الرهبان والراهبات يرتدون ملابس اليهود فى أيام المسيح .. وكانت المغارة مكيفة الهواء والضوء . وينبعث من كل جوانبها صوت رائع يردد الموعظة الأخيرة للمسيح . ولما عرفوا أننا من مصر ، اقترب منى واحد وبكل لهفة سألنى : هل هذه المغارة تشبه المغارة الموجودة فى القاهرة ؟

ولم أقل : بل هنا أروع وأجمل . وإنما قلت : تماما وبمنتهى الدقة .
ولم أقل : ولا ينقصها إلا شىء من ماء الفيضان ليجعلها نسخة واحدة من المغارة التى تركناها فى القاهرة .

وكانوا سعداء جدا بما قلت . وراحوا يهنئون أنفسهم على هذا التوفيق . وبين لحظة وأخرى يؤكدون لى : أن هذه شهادة يعتزون بها . ثم طلبوا منى أن أكتب فى دفتر هذا الرأى . وكتبت والله يعلم أنى كاذب !

وما أزال أطفو على وجه هذه المقدسات أسبح فيها ولا أبتل . كأننى غطيت جسمى بطبقة من الزيت حتى لا يلمس الماء جلدى . لماذا ؟ لا أعرف . ولكنى لم أتوقف عن التنقل من قداسة إلى قداسة .

وترددت كثيرا بعد ذلك على المعبد اليهودى لابن عزرا . وهو أيضا فى مصر القديمة وعلى مسافة قريبة من كنيسة أبى سرجة وعلى مسافة مئات الأمتار من مسجد عمرو بن العاص الذى غطته الأتربة والحجارة من الداخل ومن الخارج والطريق إليه محفوف يمينا بالبلاليص والقلل وشمالا بأكوام الزبالة .

ومعبد ابن عزرا فيه تحف لا نظير لها فى العالم . ففيه التوراة القديمة .. وفيه التلمود .. وفيه «المنورة» ذات الشموع وفيه العبارات المأخوذة من التلمود والتى

تقول: «حتى لو كانت أبواب السماء مغلقة فى وجه الصلوات.. فإن الدموع تفتح كل الأبواب».

وكان اليهود يعيشون فى الجيزة أيام النبى موسى ويسمونها أرض جوشن.. وكانوا ينتقلون إلى مصر القديمة. وفى كنيسة ابن عزرا تجد تحفا أثرية تقدر بملايين الجنيهات. ففيها تحف فضية. وفيها مخطوطات نادرة.

ودرست التوراة والتلمود ـ بعض مئات الصفحات من التلمود.. وأعجبنى من التوراة عدد من الأسفار مثل: المزامير ونشيد الإنشاد وأرميا وأشعياء.

وظل عدد المترددين على هذا المعبد يخلطون بين اسمى واسم رجل آخر له نفس الاسم وهو يهودى. وكانت زوجته اسمها جويس منصور صاحبة ديوان «صرخات». وكانت ابنة إداود عدس وعرفوا فيما أننا اثنان نحمل اسما واحدا. وانقطعت عن التردد على المعبد.. ولم أعرف فيما بعد أنهم كانوا يعرفون أننا اثنان. ولكن لم يهتم أحد كثيرا بترددى على المعبد أو حرصى على الفهم.. وعدت إلى المعبد بعد ذلك مرات كثيرة مع أساتذة اللغات الشرقية والمستشرقين من أمثال باول كراوس الذى سافر إلى الجامعة العبرية فى القدس وعاد ومعه مخطوطات نادرة وحاول مقابلة د. طه حسين وكان فى ذلك الوقت وزيرا للمعارف. وضاق باول كراوس بالمعاملة غير الكريمة وشنق نفسه.

ومنعنى الحياء أن أقول إنه استعار كتبا من مكتبة الجامعة باسمى وأنه لم يردها بعد ذلك!

وسافرت أرملته إلى إسرائيل وتزوجت مستشرقا آخر هو سالومون بينس الذى ألف كتابا بعنوان «نظرية الجوهر الفرد فى الإسلام» وترجمه إلى العربية د. عبد الهادى أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية فى جامعة الكويت.

وفى سنة ١٩٥٥ كنت عضوا ضمن وفد مصر فى «مؤتمر الخريجين» الذى انعقد فى القدس. وكان يرأس هذا المؤتمر المليونير اللبنانى اميل البستانى واستطاع الوفد المصرى أن ينحى أميل البستانى عن الرياسة وأن ينتخب الجميع د. فؤاد جلال.

وفى يوم الجمعة ذهبنا للصلاة فى المسجد الأقصى. وكان الإمام والخطيب هو الشيخ الباقورى. وخرجنا من الصلاة ولم نجد أحذيتنا. ضاعت أو ضللنا الطريق إليها. وذهبت حافيا إلى الفندق. ورأينا الصخرة وقبة الصخرة.

وذهبت مع الشيخ الباقورى والدكاترة عزيز صدقى وحسين مؤنس وراشد البراوى ووزير الخارجية المرحوم قدرى طوقان إلى زيارة حائط المبكى.. وهو الحائط الغربى من معبد سليمان الذى انهدم أكثر من مرة. الحائط ليس عاليا. ولكنه فى حارة ضيقة وقد نبتت عليه الأعشاب.

وبين الأحجار توجد أوراق. سحبت ورقة فوجدتها بالعبرية. وعرفت أن اليهود عندما يزورون حائط المبكى يبكون ويصرخون ويطلبون من ربهم الخلاص والعودة. وأذكر أننى وضعت فى «حائط المبكى» ورقة أضحكت الأستاذ الباقورى والآخرين.. وكانت هذه الورقة تضم أبياتا للشاعر عبد الحميد الديب والتى يقول فيها:

كأنى حائط كتبوا عليه....

إلى آخر الكلمات التى لا يليق ذكرها أو نشرها.

ولم يعجبنى هذا التصرف. فقد وقفت إلى جوار الحائط التى يشتهى ملايين اليهود أن يلمسوه. وعندما استولوا على القدس فى يونيو سنة ١٩٦٧ أسرعت

القوات اليهودية إلى تقبيل الأحجار والبكاء عندها كما أنهم هدموا كل البيوت القريبة من «حائط المبكى» بما فيها بيوت أسرة ياسر عرفات . وجعلوا أمامها ميدانا فسيحا . وقسموا الحائط إلى ثلاثة أقسام : قسم لصلاة الرجال وقسم لصلاة النساء والقسم الثالث لرجال الدين يقرأون ويتأملون .

وعلى الرغم من أن رئيس إسرائيل زلمان شازار ملحد فى ذلك الوقت . وموشى ديان ملحد ، فإنهما قبلا أحجار حائط المبكى !

وفى بيت لحم زرت كنيسة المهد . وقد تقسمت الكنيسة من الداخل إلى قطاعات لكل فئة من فئات المسيحية . وهناك رأيت المزود الذى ولد فيه السيد المسيح . ورأيت مكان النخلة والتى تحدث عنها القرآن الكريم وهو يتوجه إلى مريم عليها السلام : «وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا» .

وقبل ذهابي إلى كنيسة القيامة دعانى الصديقان يوسف البندك ومازن البندك إلى الغداء . وصعدت إلى بيتهما . وتغدينا وضحكنا . وقلنا ما يقال وما لا يقال . وبعد ذلك نزلت لأجد أن كنيسة المهد ملحقة بنفس البيت وأننا كنا فوق الكنيسة . وأن أسرة البندك تملك هذه الكنيسة أيضا .. كيف نفعل ما فعلنا فوق هذا الأثر المقدس .. ولكننى كنت وحدى الذى أصابه الفزع . أما الآخرون فقد اعتادوا على رؤية ما هو مقدس . فجاءت هذه العادة تجرد كل شىء من قداسته . والمثل يقول : يذهب إلى الصلاة متأخرا من يسكن إلى جوار الجامع !

أو لا يذهب لأنه اعتاد على الصلاة والقراءة والأذان .. أو ضاق بها جميعا .

ومشيت فى طريق الآلام الذى سار فيه السيد المسيح يحمل صليبه والرومان يضربونه واليهود . ورأيت الجسمانية حيث تناول المسيح عشاءه الأخير والذى

خانه فيه أحد تلامذته : يهوذا الأسخريوطى . وباعه للرومان بقروش قليلة .

وقد حاول اليهود بعد ذلك عندما أنتجوا فيلم «بن هور» من تأليف الجنرال اليهودى وليامسون أن يبينوا أن اليهود لم يضربوا المسيح ولكنهم الرومان . فظهر فى هذا الفيلم الأمير بن هور وهو حزين على المسيح ويحاول أن يحمل عنه صليبه ولكن الجنود رفضوا ــ وهذه أكذوبة طبعا ــ ومن أجل هذه اللحظة الكاذبة أنفق اليهود ملايين الدولارات !

ووقف أحد القساوسة يقرأ بصوت حزين «الموعظة الأخيرة للمسيح» . إن صوته وعباراته تمزق القلب .. وتذكرنى بما فعله أبو بكر عندما سمع الرسول عليه السلام وهو يتلو الآية التى نزلت عليه : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» . وبكى أبو بكر وعرف أن هذه هى النهاية !

وعندما ذهبت لزيارة الفاتيكان . كان فى ذهنى أننى أمام تحفة معمارية . ولوحات رائعة على الجدران وأمام أعظم مكتبة فى العالم . وأخطر مكتبة سرية أيضا . وأن الفاتيكان أغنى دولة وأقدم دولة . قد استطاعت أن تقاوم كل الأحداث وتبقى كما هى بلا جيوش ولها أموال فى كل بنوك الدنيا . وأن الذين يستثمرون أموالها هم أصحاب الملايين من اليهود . ودخلت إلى كنيسة القديس بطرس . إنها تحفة فنية . والقديس بطرس هو الذى هرب من روما خوفا من الاضطهاد . فلقيه المسيح فى الطريق . فسأله القديس بطرس باللاتينية : كوفاديس ، دوميني ــ ومعناها أين تذهب أيها السيد .

فقال له المسيح : جئت لأصلب من جديد !

وأدرك القديس بولس أن المسيح يقول له : «إنه سوف يصلب مرة أخرى في جسم تلميذه بطرس»

وعاد القديس بطرس إلى روما ليكون من الشهداء . فقد صلبه الرومان بعد ذلك بوقت قصير .

وضمن وفد من المقاومة الصغار دخلت كنيسة القديس بطرس ووضعت طاقية على رأسي . وتشاء الصدف أن يمر إلى جواري البابا يوحنا الثالث والعشرون محمولا على محفته الذهبية . ويضع يده على رأسي ويمسك الطاقية ويمزق جانبا منها ثم يضعها على رأسي بعد ذلك ؟ ولم أفهم . ومن الغريب أنني لم أسأل أحدا عن معنى ذلك . وعندما خرجت من الكنيسة انهال على رأسي عشرات من الواقفين خارج الكنيسة . واختفت الطاقية قطعا صغيرة في أيديهم - على سبيل البركة . وعندما رويت هذه القصة على ظهر الباخرة أسبيريا عائدا إلى مصر تهجمت على رأسي عشرات الأمهات يقبلن مكان البركة !

وفي الهند رأيت معابد فشنو وشيفا . ورأيت الأبقار المقدسة التي إذا نامت في الطريق توقف المرور تماما . وأنني إذا دخلت محلا فإن أحدا لا يقربها أو إذا أراد أن يخرجها فإنه يصرخ حولها ولا يلمسها . وقد اعتادت هذه البقرة من ألوف السنين على هذا الاحترام والتقديس .

لذلك فهي آمنة في كل ما تفعله . فهي تعيش وتموت ولا يذبحها أحد . الثيران فقط هي التي يذبحونها . ورأيت القرود المقدسة والثعابين المقدسة والحشرات المقدسة ورأيت السلام والأمان في أهل الهند .

وعندما ذهبت لمقابلة الدلاى لاما . إله التبت . وكان هاربا من بلاده أمام قوات الصين . وكان في ذلك الوقت يعيش في جبال الهملايا . وفي

الطريق إليه مررت على حديقة اسمها الحديقة المقدسة . كل أشجارها مقدسة . وممنوع الاقتراب منها وحملوني على محفة إلى قداسة الدلاى لاما . وكان يتولى الترجمة رئيس وزراء الدلاى لاما . وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة . وأكرمني الدلاى لاما وأجلسني إلى جواره على مدى شبر من أنفه الذي يخر ويشر . وطبيعي أن يصيبني الزكام المقدس . وأن ألعن أجداده في سرى . ولكن إحساسي بأنني الوحيد الذي قابله وصوره هو وأمه ووزراءه . خفف عني ويلات الرشح والسعال . بل إن بعض الوزراء حسدني على ما أصابني . وقال لي : يا بختك : إننا نعيش معه عشرات السنين ولم ينلنا هذا الزكام العظيم والسعال المقدس والرشح الأبدي !

إنه إله التبت يختارونه بالصدفة ويجعلونه مقدسا وعندما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يخنقونه أو يقتلونه . فهو الوحيد في العالم الذي يعرف متى سيموت . ولذلك فحياته تعيسة . وسألني رجاله . إن كنت قد أحسست بشيء من البركة . فقلت : طبعا .

ويعلم الله أنني كاذب .

واستوضحوني أكثر فقلت . إن الدم يغلى في عروقي .. وإن القوى الشيطانية تخرج أظافرها من كل مكان في جسمي .. وإن وزني سوف ينقص حالا : لأن الماء ينزل من أنفي باستمرار .

ولم أكن كاذبا فقد انتقلت إلى كل أعراض الأنفلونزا الإلهية بسرعة أعرفها . وأعاني منها . ولا أزال . وسوف أظل مدى الحياة !

وأحسست أن الشمع قد سد أذني تماما وأنه بدأ ينتقل إلى عيني أيضا : باه .. واحد عيان وإله في نفس الوقت !

وفى جزيرة بالى بأندونيسيا قدمت نفسى على أننى من رجال الأزهر الشريف ولم أدرك خطورة هذه الكلمات . فقد نصحونى بألا أقول إننى صحفى . فهذه مهنة لا قيمة لها . ولا تعنى شيئا بالنسبة للناس هناك .

ولكن إذا أردت أن أكون محترما فلابد أن أكون من رجال الدين وفقط . وفى الليل جاءنى عدد من الحضارمة . وهم أبرع تجار آسيا وهم الذين نقلوا الإسلام إلى ١٢٠ مليونا فى أندونيسيا . ومائة مليون فى الصين ومائة مليون فى الهند و ١٢٠ مليونا فى باكستان .

وتقدم واحد منهم ليقول : ياشيخ .

فقلت : نعم .

ـ لماذا لا تصلى معنا التراويح ؟

ـ طبعا إن شاء الله .

وكان ذلك فى رمضان . ولم يخطر على بالى أن أؤم كل هؤلاء المؤمنين . مقلب . وفضيحة لى . لاشك .

ولكن لم أعرف لماذا اكتفوا بأن أؤمهم فى صلاة العشاء . الله أعلم . ولكن بعد ساعة جلسنا معا . على أرض المسجد وسألونى عن المشير عبدالحكيم عامر .. وسألونى عن جمال سالم الذى ذهب إلى الصين .. وأخطر من ذلك سألونى عن معنى قوله تعالى : النجم الثاقب .

وقالوا إنهم أرسلوا إلى أحد العلماء فى سنغافورة . وقد أرسل لهم الشرح وقرأوه . ووجدت الشرح معقولا . وسألونى ما علاقة هذه الآية بأول رائد للفضاء أطلقه الروس ؟ .

ولا أذكر الآن ماذا قلته إطلاقا . فلا أنا من رجال الدين ولا أنا من المتفقهين فى الدين ولست مؤهلا لأن أكون إماما وشارحا ـ فليسامحنى الله !

وعندما عدت إلى جاكارتا طلب منى د . محمد محمود رضوان . مستشارنا الثقافى فى ذلك الوقت أن أحضر امتحان الطلبة المسافرين إلى مصر ليلحقوا بالأزهر .

وجلست وسأل الدكتور رضوان أحدهم : هل تحفظ القرآن الكريم . قيل له : نعم .

ـ اقرأ سورة النحل .

فقرأ الطالب ..

وسأله : هل تحفظ الأحاديث النبوية ؟

ـ بعضها .

ـ قل لى بعضها .

وروى الطالب بعض الأحاديث .

ثم سأله : هل تحفظ شيئا من التواشيح الدينية ؟

ـ نعم .

ـ اسمعنى .

ـ حاضر ٥ × ٦ بثلاثين يوم .. ألو ألو إحنا هنا . ونجحنا أهه فى المدرسة ..

ولم يعرف الطالب أنه يردد بعض أغنيات شادية . ولكنهم يعتقدون أن كل ما تذيعه مصر التى بها الأزهر الشريف . هو تواشيح وأغان مقدسة . ولذلك فالرقابة تحذف الرقص من الأفلام المصرية .

بل إن فيلم خالد بن الوليد عندما عرض هناك كانوا يدخلون السينما بعد أن يخلعوا الحذاء !

ولما ذهب شيخ الأزهر الأستاذ تاج ، كانوا يقبلون السيارة التى يركبها . واندهشوا وما زالوا مندهشين ، عندما وجدوا بعض رجال الدين المصريين قد ناموا أثناء جلوسهم معهم .. وأن نومهم كان مسموعا صارخا . لأن هذا يخالف الآية الكريمة التى تقول : «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون» .

وفى باريس دعانى إمام المسجد سى قدور بن غبريط إلى صلاة العيد . ودخلت واكتشفت أن بعض السياح الأمريكان والايطاليين وبعض الفرنسيين قد تسللوا يتفرجون على أناس يركعون ويسجدون ويكبرون . ولا يفهمون شيئا .

بل إن واحدا منهم قد وضع يديه فى جيوبه وسيجارته فى فمه . ونهض أحدنا ونبهه إلى ذلك . فأطفأ السيجارة وأخرج يديه وجلس على الأرض . وراح يقلب فى إحدى المجلات . إنه هو أيضا ملأ أذنيه بالشمع . فلا شىء يسمعه ، والذى يسمعه لا يهزه . فهو لا يعرف من أمر هؤلاء المسلمين شيئا . ولا يهمه أن يعرف . وإذا أراد فلا وقت ، وإذا كان وقت فلا فائدة .. فهو مسيحى والسلام !

وفى العراق زرت النجف وكربلاء .. وهنا أقدس قداسات الشيعة . فعلى بن أبى طالب عليه السلام قتل وأولاده من بعده .. وارتدى الناس السواد حدادا على ذلك . وارتدى رجال الدين السواد أيضا . والمساجد فى غاية الروعة . وتحت قبابها أكوام من الأحجار الكريمة جاءت من كل مكان .. وروائح البخور والعطور تنبعث من أرض المساجد ..

وأرض النجف وكربلاء طهور . ويصعدون منها المسابح . ويجىء الشيعة من إيران حفاة وعراة . ويجيئون بالسجاجيد الفاخرة يبيعونها ليعيشوا من ثمنها . ورغم الخلافات الحادة بين إيران والعراق . ولكن لا حياة روحية للشيعة بغير زيارة الأراضى المقدسة فى النجف وكربلاء . وقد حذرونى إذا دخلت المسجد وصليت ألا أضع يدى مضمومتين على صدرى.. فإن أهل السنة هم الذين يفعلون ذلك . وبالفعل امتدت يد من جوارى تفك يدى .. فقد نسيت . وقيل إننى لو فعلت ذلك فى مسجد آخر لطردونى من المسجد . وأعتقد أن هذه مبالغات وتشويه لعادات وتقاليد الشيعة !

ونحن فى مصر لا نعرف هذه الفوارق المذهبية بين الشيعة والسنة .. فالمصريون المسلمون من أهل السنة ومع ذلك يقيمون صلوات الأعياد ومولد النبى ورمضان كله فى مسجد الحسين .. ويترددون على مسجد السيدة زينب والسيدة فاطمة والسيدة نفيسة . ولا يخطر على بال أحد ما علاقة كل هؤلاء الأولياء بعلى والشيعة ؟

وفى طهران ذهبت أتفرج على معبد النار أو النور .. المعبد غرفة واحدة . وفى منتصف الغرفة غرفة زجاجية فى داخلها قنديل مشتعل . والقنديل يستمد طاقته من الزيت . ومفروض أن هذا القنديل لا ينطفئ أبدا . مثل شعلة الجندى المجهول

وعلى المؤمن أن يجلس على مقعد وأن يظل ينظر إلى هذا القنديل ويتفكر فى الكون . فكل شىء فيه نور ونار والله هو هذا النور وهذه النار . وليس

القنديل إلا رمزا لذلك. ومادام الإنسان غير قادر على أن يرى الله مباشرة، فينظر إلى ما يرمز له.

والقنديل صنعه إنسان وقدم له الزيت إنسان. ويجلس أمامه إنسان في حالة ذهول.. في هذا القنديل تتجلى قدرة الله.

وجاءني رجل الدين وقد نزل من سيارة مفخمة. وقد ارتدى البيجاما والشبشب. وفي مكان مجاور توجد إدارة المعبد. ومنها تتعالى ضحكات ناعمة. واقتربت لأرى أربع فتيات جميلات جدا يلعبن الورق!

وبالقرب من هذا المعبد محلات بيع صور للنبي عليه السلام ولعلي بن أبي طالب. والصورة مصنوعة في اليابان. إذا أملتها إلى اليسار رأيت وجه الرسول. وإذا أملتها إلى اليمين رأيت وجه علي.. ولوحات كبيرة حائطية لصورة الرسول والإمام علي – كيف؟ هنا ممكن!

وفي طوكيو رأيت المعابد الكبرى هناك.. وفيها نيران مشتعلة ليلا ونهارا. ورأيت عددا من المعابد البسيطة التي تتعلق في مداخلها مقشات. ومفروض أن يهز الإنسان هذه المقشة. فتكنس خطاياه. واليابانيون يفعلون ذلك في الذهاب والإياب..

والرجل الياباني من الممكن أن يعتنق دينين وثلاثة أديان في وقت واحد. فيكون بوذيا وشنتويا أو كنفوشيا وشنتويا ومسيحيا. وليس ذلك غريبا. ولكنه طبيعي جدا في اليابان.

واليابانيون عمليون جدا. وعندهم هذه العبقرية على توطين كل شيء وإعطائه الذوق الياباني. فبدلا من أن يذهب كل اليابانيين إلى المعابد. فإنهم يقيمون لأنفسهم معابد في البيت.. نماذج صغيرة لهذه المعابد – معابد ترانزستور. ويصلون أمام هذه المعابد ويخرجون وقد أدوا ما وجب عليهم نحو ربهم!

ولو سقط هذا المعبد الصغير لأي سبب. فإن الرجل الياباني يشتري معبدا آخر ويضعه في نفس المكان. تماما كما يضع مسمارا في حائط.. أو يضع لوحة بدلا من لوحة. فهو يعلم أن كل هذه رموز. فهو لا يصلي للمعبد. ولكن يبتهل أمامه هو وأهل بيته. فالمعبد الصغير يوحد بين أفراد الأسرة: يوحد اتجاههم وصلاتهم!

وأجمل ما قرأت في كتاب «الفيدا» دعامة الديانة الهندوكية هذه العبارة: أيا كانت وجهتك. أيا كانت قبلتك. أيا كان وثنك ومعبودك فأنا الذي أستجيب لدعائك.. إنني وراء كل شيء. ووراء كل رمز!..

* * *

وفي مدينة هوليود كنت على موعد مع الملكة نازلي. فقد تلقيت برقية من «أخبار اليوم» تطلب مني أن ألتقي بالملكة نازلي وأجري معها حديثا. وقابلت رياض غالي زوج الأميرة فتحية.. ووجدت رياض غالي ممزق الملابس حزينا.

ولم يفهم لماذا هو خارج مصر مع أنه لم يفعل أكثر من تمرده على الملك فاروق وهز أركان الأسرة الملكية وحطم قلب الملك فاروق.

وهو لذلك لا يستحق الطرد من مصر. وطلب مني أن أعده بشرف ألا أكتب حرفا واحدا عنه أو عن الملكة نازلي. ووعدته. وقال إنه ليس في حالة

تسمح له بالدفاع عن نفسه إذا قلت عنه أى شىء . ومعه حق . ولم أكتب حرفا .

وسألنى : هل تحب أن ترى شيئا هنا

قلت : أريد أن أرى سينما المصرى .

وسألته : ومن هو المصرى .

ولم يعرف رياض على . وأنه لم يفكر فى ذلك .

واسم «المصرى» هنا ليس مقصودا به مواطنا مصريا . وإنما المقصود هو موسى عليه السلام لأنه مصرى : وصاحب السينما يهودى . وفى هوليود كل الشركات السينمائية يهودية . فالشركة مترو ـ جولدين ـ ماير ـ هؤلاء الثلاثة يهود . وإخوان وارنر ـ ثلاثتهم يهود أيضا .

وكان من الضرورى أن أتفرج على أحد المعابد اليهودية . ووجدت واحدا . وعرفت أن فى هوليود معابد كثيرة وفى أمريكا كلها مئات . ولم أجد شجاعتى عندما قررت أن أدخل أحد المعابد . ففى أمريكا يشعر الإنسان بأنه صغير . فهو قليل فى دولة كبيرة ومواطنوها أكثر من ٢٥٠ مليونا . والناس يمشون بسرعة . ولا يشعرون بك . ولا يعرفون من أى البلاد أنت . وهم ينظرون إلى بلادك على الخريطة فيجدونها مساحة صغيرة ... ثم يجدونك أنت من الفقراء . تمشى على رجليك ولا عندك سيارة ولا طيارة ولا مزرعة ولا أنت ابن عمدة أو محافظ أو عضو فى مجلس الشيوخ . ثم إنك لست من شيوخ الكويت أو أمراء السعودية . يعنى أنت ولا حاجة !

وبهذا الشعور بالهوان الذى لا مبرر له . انتزعت كبريائى وشجاعتى . ودخلت المعبد . ووجدت عند «قدس الأقداس» مجموعة من الطواقى .

فوضعت واحدة على رأسى وقابلنى الحاخام وسألنى : من مصر؟!

وأدهشنى ذلك . ثم راح يكلمنى باللغة العربية . فهو لم ينتظر أن أجيب بأننى من مصر أو من أى بلد آخر كأن أقول : إيطاليا .. أسبانيا من مراكش .

وسألنى : هل قابلت أحدا من اليهود هنا !..

قلت : لا . لماذا ؟

ـ لأنك لست فى حاجة إلى البحث عنهم . إنهم هنا فى كل مكان . أين تسكن ؟

ـ فى فندق روزفلت .

ـ أصحابه من اليهود .

ـ وأين تتناول عشاءك .

ـ فى شارع غروب الشمس (صنست بوليفار) .

ـ كله من اليهود .

ـ وهذا الدواء ضد الزكام من أين !

ـ من أجزاخانة فيتامين للجميع .

ـ إنها ملك أخى !

ـ كم تبقى هنا .

ـ أياما

ـ وتسافر إلى نيويورك على أية طائرة .

ـ على طائرة يهودية طبعا .

ـ بالضبط .

ـ كنت أريد أن أتفرج على هذا المعبد .

ـ إنه متواضع جدا . عندكم فى مصر القديمة معبد ابن عزرا ـ تحفة حاولنا شراء ما فيه . ولكن لم نستطع .

ـ لماذا ؟

ـ هل تغضب لو قلت لك الحقيقة ؟

ـ الحقيقة لا تغضب أحدا .

ـ لا أوافقك على ذلك .. ولكن سوف أقول لك .. إننا فكرنا كثيرا . وأخيرا استقر رأينا على أنه لا داعى لنقلها من مصر مادمنا سنعود إليها .

وتضايقت جدا وقلت له : نحن على استعداد لأن ننقل إليكم هذه التحف حتى لا نراكم بعد ذلك .

ـ وبعد ذلك تريد أن تتفرج على المعبد .

ـ رغم ذلك أريد أن أعرف .

ـ أنت من طراز نادر . تستطيع أن تدوس على نفسك من أجل أن تعرف .

ـ أحاول أن أفعل ذلك الآن ..

ولا أظن أننى رأيت بوضوح أو فهمت ما قاله الحاخام بعد ذلك . ولكن حاولت أن أثبت له أن الذى قاله لاقيمة له . وأنه حاول إغضابى لعلى لا أكمل الحديث معه ، أو لعلى أخرج دون أن أرى أو أعرف ..

وعندما ودعنى عند باب المعبد قال : لم تضع وقتك . وإن كنت قد غضبت من هذه الصراحة .

ـ وقاحة لا صراحة !

وسألنى رياض غالى : إن كنت قد استمتعت بما رأيت . فقلت : بما رأيت نعم . ولكن بما سمعت لا !

ويبدو أنه كان يتوقع شيئا من ذلك . ولم يشأ أن يصدنى عن مزيد من المعرفة !

* * *

ولم أزر مسجد السيدة زينب ومسجد الحسين إلا منذ عامين فقط . فقد كانت أمى مريضة . وتصورت أن هذه الزيارة ستخفف عنها وبلاءها .

وذهبت ودعوت ونذرت . وجاء أمر الله واستراحت أمى من حياتها . وكرمها الله وشرفها . وأعانها على مرضها بالدواء والعلاج .. وكان الإغماء الطويل مقدمة للراحة الكبرى فماتت وهى لا تعرف إلا أنها نائمة !

وفى امبابة مسجد أمام نادى بنك مصر . اسمه مسجد الشيخ أبو طرطور . وكثير من الناس يتبرك بهذا الرجل المجهول . وترددت عليه كثيرا .. ووقفت إلى جواره وقرأت ودعوت . واستجاب الله لكثير مما طلبت ـ والله أعلم كيف ؟

وسبقنى الأصدقاء إلى كنيسة القديسة تريزا بشبرا . وألوف المسيحيين والمسلمين يتبركون بها . وينذرون لها . ويستجيب الله لدعواتهم . ولا أعرف كيف ؟
وذهبت إلى كنيسة القديسة تريزا وتفرجت على الناس . واستحضرت روحها الصافية وعذابها وهوانها على الناس .. وإيمانها العميق . ورأيت نذورا بأسماء عدد كبير من المسلمين . وهذا طبيعى . فصاحب الحاجة أو المشكلة يريد أن يجد لها حلا عند أى إنسان أو فى أى مكان .. والله فى كل مكان . والله يودع سره وقدرته فى قلوب كثير من المؤمنين ..

وفى سنغافورة دخلت أحد المعابد الصينية . لا أعرف الفرق الواضح بين المعبد الكونفوشى والمعبد البوذى . فهناك نقوش وتماثيل وبخور وعطور

وأصواء . وسألنى أحد رجال الدين : هل لك شكوى ؟

لم أفهم . وسألته : ما الذى يقصده ؟

فقال : هل لك شكوى من ألم فى جسمك .

قلت : أخاف من البرد . فإذا أصابنى أقام فى جسمى طويلا .

قال : إذن امش ورائى .

ومشيت وراءه . وكلما اقترب من نهاية المعبد وأمام تمثال كبير لبوذا لمس كتفى . ثم عاد فلمس ركبتى . ثم عاد فمسح على رأسى .

وسألنى : هل ضاع منك شىء ؟!

فأدهشنى السؤال فقلت : فعلا ضاع منى أكثر من ٣٠٠ جنيه .

سألنى : كيف ؟

قلت : لقد ألغى سوكارنو العملات من فئة المائة روبية . وكانت كل فلوسى من هذه الفئة . فى لحظة واحدة لم أعد أملك إلا القليل جدا .

فقال : لن أرد إليك كل هذه الأموال وربما بعضها فقط .. مائة جنيه فقط .

ـ كيف ؟

هذا شأنى . فإذا عادت إليك أرجو أن تمر على المعبد مرة لتخبرنى بذلك . وتضع جزءا منها فى صندوق التبرعات .

وخرجت شاكرا ولا أصدق شيئا مما يقول .

ولكن العجب حقا . أنى لم أعد أشكو من أوجاع البرد إطلاقا . وليس هذا وهما . ولكنها الحقيقة .. ثم إنى وجدت فى حافظة نقودى ما يعادل مائة جنيه . لا أعرف من أين جاءت . وذهبت إليه أشكره . فأحنى رأسه كأنه

يعرف . ثم أشار إلى صندوق التبرعات . وأعجب ما حدث هو أننى اكتشفت بعد أن خرجت من المعبد أننى ـ دون وعى ـ قد أودعت كل الفلوس التى عثرت عليها فى حافظة نقودى !

ولم أذهب للرجل بعد ذلك !

* * *

ورأيت عددا كبيرا من بيوت ومقابر العظماء الذين أحترمهم . فقد قرأت لهم وأحنيت رأسى لهم ..

رأيت قبر نابليون فى باريس .. القبر تحت والناس ينظرون إليه من فوق . والحكمة فى ذلك : أن يحنى الناس رءوسهم إذا نظروا إلى قبر عبقرى الحروب والسياسة والغرام والقانون .

ورأيت قبر الشاعر دانتى فى مدينة فلورنسا وقبره عبارة عن غرفة خانقة . ولكثرة الزحام عليها أصبحت روائحها كريهة . لعل الذى صمم هذا القبر أراد أن يذكرنا بالجحيم الذى كتبه دانتى .

وكان يرافقنى د . حسن عثمان الذى ترجم الكوميديا المقدسة لدانتى بأقسامها الثلاثة : الجحيم والمطهر والفردوس . وطلبت إليه أن يشرح لى شيئا . أن يحدثنى عن الشاعر وتعبت فى الرجاء . فجاء رفضه جزءا آخر من الجحيم !

ورأيت بيت الشاعر الألمانى جيته فى مدينة فرانكفورت على نهر المين . ورأيت أين يكتب .. أو على الأصح أين يقف ليكتب . فلم يكن يكتب إلا واقفا . وأين يأكل وأين ينام . وكان يرافقنى د . مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية والذى يتكلم عشرين لغة . من بينها الآرامية والأكادية والعبرية

والحبشية والحيثية والقبطية الخ . ولم يكن د . مراد كامل متحمسا لهذا الاحترام الهائل الذى أكنه لأمير شعراء ألمانيا . وكان العقاد يقول إن الشاعر جيته ليس إنسانيا . فعندما كان وزيرا للمعارف فى إمارة فيمار فصل الفيلسوف فختة من عمله ، لأنه خالفه فى الرأى .

ولكنى كنت مبهورا بما أراه وما أسمعه عن شاعر عظيم أحببت فنه . ولم أحب أخلاقياته . وقرأت أجمل ما قيل عنه فى كتاب «محاورات أكرمان» التى سجلها سكرتيره أكرمان .. فأجاب جيته عن ألوف القضايا فى غاية الوضوح والفخامة والعمق .

وفى مدينة تيبنجين زرت البيت الذى عاش ومات فيه الشاعر الألمانى هيلدرلن . عاش ثمانين عاما ، نصفها فى مستشفى الأمراض العقلية .

وكان يرافقنى د . عبد العزيز حجازى . وعندما وقفنا عند البيت خرجت سيدة وفى يدها سلة للغسيل . ولم أصدق أن هذا بيت الشاعر العظيم الذى يعتبر من أروع شعراء ألمانيا ، والذى ألف ملحمة هيبريون ، تحفة الأدب الألمانى فى كل العصور .

ويبدو أننا وصلنا متأخرين بعض الوقت . ولكن السيدة أشارت بيدها إلى غرفة على اليسار . وقالت : هنا كان سريره . ونافذته التى تطل على نهر السالزاخ .. وهناك على الضفة الأخرى «حديقة التأوهات» ..

وذهبنا إلى البيت الذى كان يسكنه الفيلسوف هيجل أبو المثالية الألمانية . والذى تمرد عليه كارل ماركس فاستفاد من فلسفته كلها ، واستخدم مصطلحاته وفلسفته التاريخية . ولكن كارل ماركس يقول : إن هيجل جعل الفلسفة كلها تمشى على رأسها فأما أنا فقد أوقفتها على رجليها !

وجاء الفيلسوف الدنمركى الوجودى سيرن كركجور وثار على الفيلسوف هيجل واستخدم مصطلحاته كلها وجعلها سهاما مسمومة استقرت فى قلب الفلسفة المثالية .

وأعترف بأن رأسى اهتز كثيرا ، وأن أكثر الشمع قد ذاب فى أذنى فسدهما تماما .. ثم بدأ يذوب خارجا من أذنى .. فأنا أشعر بأن هؤلاء العظماء بشر . لهم وجود ولهم كتب ولهم نظرات وآلام . وأنهم فكروا وتعذبوا وأتوا بشىء جديد .. أعرفه جيدا . ولذلك أقدرهم تقديرا عاليا ..

* * *

وفى مدينة نابلى ذهبت إلى اللواء حسنى نجيب لزيارة بيت الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشة . الرجل الذى عرض عليه أن يكون أول رئيس لجمهورية إيطاليا بعد سقوط الملكية فرفض .

كما رفض العالم الرياضى اينشتين أن يكون رئيسا لإسرائيل .. وكما رفض لطفى السيد أن يكون أول رئيس لجمهورية مصر .. وكان كروتشة قد مات . وأردت أن أرى بيته ومكتبته وابنتيه . ورأيت المكتبة ورأيت ابنتيه وقلت لهما إن بعض مؤلفات الفيلسوف العظيم قد ترجمت فى مصر . إن واحدا من كتبه واسمه «الخلاصة الجمالية» قد ترجمه اثنان من الأصدقاء هما د . سامى الدروبى ود . بديع الكسم .

وقلت : إننى أيضا ترجمت فصولا من كتابه «التاريخ قصة الحرية» وأهدتنى إحدى بناته كتابه عن «علم الجمال» ، وكانت عندى نسخة من هذا الكتاب . ولكن أحسست أننى أخذت الدنيا كلها . وظل هذا الكتاب

لا أفتحه ولا أقلب فيه .. احتراما وإعجابا بصاحبه !

وفى سالزبورج بالنمسا زرت البيت الذى ولد فيه الموسيقار المعجزة موتسارت . وصعدت الدرج . ورأيت الغرف الصغيرة وأوانى الطبخ النحاسية .. والبيانو الصغير . وخصلة من شعره ..

ولما ذهبت إلى فيينا ورأيت مقبرته .. أو يقال إنها مقبرته .. وعرفت أن زوجته لم تسر فى جنازته . وقيل فى ذلك الوقت إنها مريضة . وقيل إنها كانت تخونه .. وصدر حديثا جدا كتاب يبرئ هذه الزوجة . فقد اكتشف أحد علماء الأرصاد أن الجو يوم وفاة موتسارت كان عاصفا رعديا وكانت الأمطار غزيرة حتى أن أحدا لم يستطع أن يمشى فى جنازته . ثلاثة فقط . ولم يكن فى الإمكان أن يذهب وراءه أحد ..

وبكيت على عبقرى الموسيقى ..

وفى مدينة بون بألمانيا رأيت البيت الذى عاش فيه الموسيقار العظيم بيتهوفن . هنا كان يؤلف . وهنا كان يجلس . ثم هذه سماعات صغيرة وكبيرة وكبيرة جدا كان يضعها فى أذنيه عندما أصيب بالصمم فى آخر أيامه .. ثم بالجنون . فقد كانت الفرقة الموسيقية تعزف أحد روائعه . عندما رأى الناس يهللون فظن أنهم يسخرون منه ، فكاد أن يفقد عقله .

وقد فكر فى الزواج مرة بعد مرة ولكن الفتيات كن يهربن منه . لأنه عنيف وحاد المزاج وعصبى . ولا يغتسل كثيرا . ولا يريد أحدا أو شيئا يشغله عن فنه .. مسكين عاش غناء ساحرا لآذان الناس ، ليفقد أذنيه بعد ذلك !

وهزتنى قصته وحياته ومأساته .

* * *

وفى هافانا بكوبا رأيت البيت الذى عاش فيه الأديب الأمريكى همنجواى حديقة واسعة ما تزال فيها الغزلان . البيت من دور واحد . تحفة . وفى إحدى الغرف عشرات من الأحذية تجاورت وتكدست ـ كما كان يفعل العقاد .

وكان يشرب كثيرا حتى لا يفيق . ولكنه عندما يكتب كان يصعد إلى أحد الأبراج . وكان يكتب بعشرات من أقلام الرصاص . وأطلق على نفسه النار ومات . تعب من الحياة لم يفهم كل ما يريد أن يعرفه . يائس من الإنسان . حزين على أن عمره قصير . والذى يريد أن يقوله كثير .

والحكمة اللاتينية تقول : العمر قصير والعلم طويل !

وأنه لا أمل فى نجاة الإنسان من الإنسان . ولا أحد يستطيع شيئا لأحد . والدنيا لا يصلحها كاتب ، ولا ألف كاتب . وإنما يصلحها نبى أو من هو فى مقام الأنبياء !

* * *

وفى مدينة رياليو على شاطئ الريفييرا الإيطالى أقام الشاعر الإنجليزى بيرون . وجاء الشاعر الإنجليزى شيللى وغرق فى المياه التى تطل عليها المدن الجميلة : بورتو فينو وراباللو وفوريتوزه وسانت مرجريتا وأروتا .. وفى أحد البيوت قيل لنا : هنا أقام .. وهنا نام .. وهنا أحب ... وهنا كتب . وهنا نقلوا جثمانه .. وكان شابا عظيما . وكانت له مأساة . فمن الذى لا يحزن على شبابه وعبقريته ؟

* * *

وفى لننجراد زرت بيت الشاعر العظيم بوشكن . هنا مكتبه . وهنا سريره الصغير . بل هذا هو سريره فقد كان ضئيل الحجم . وهو من أصل أفريقى مثل الروائى الكسندر ديماس ومثل الفيلسوف ألبير كامى . وقد دخل الشاعر بوشكين فى صراع وفى نزال . وكان نصيبه الموت .

وفى موسكو قبر لينين . أهم معالم موسكو . وأهم ما يفعله الزائر إلى الاتحاد السوفيتى هو أن يقف فى الطابور الطويل الذى لا ينتهى ليدخل قبر لينين . ويلقى نظرة على جسمه الذى تمدد . والذى لا يزال أحمر اللون كأنه مات بالأمس مع أنه مات سنة ١٩٢٤ . ولا يتساءل الناس هل هو لينين أو نموذج من البلاستيك أو أن الروس قد تقدموا فى فن التحنيط ، كما كان الفراعنة من ألوف السنين . لا أحد يسأل . ولا ضرورة . وإنما المهم أن يجد له مكانا فى الطابور ، وأن يدخل لحظات ويدور وينظر ويخرج ويتحدث بعد ذلك !

ولابد أن لينين كان عبقرية ثورية فذة . فقد استطاع أن يقلب الأوضاع وأن يدبر وأن ينفذ وأن يجد إجابات على كل سؤال وإشكال .. وأن يكون بذلك آخر الفلاسفة الشيوعيين ، حتى جاء من بعده ماوتسى تونج وأضاف جديدا إلى التطبيق الشيوعى !

* * *

وفى ميونيخ بألمانيا الغربية تناولت غدائى وعشائى فى حانة البيرة الشهيرة التى كان يعقد فيها هتلر اجتماعاته السياسية . وفى برلين الشرقية رأيت أنقاض قصر المستشارين فى الشارع الذى كان يعرف باسم «أشجار الزيزفون» والذى أصبح بعد ذلك يحمل شارع ستالين . ثم تغير إلى اسم شارع ماركس أو شارع الشعب - لا أذكر بالدقة . وفى قصر المستشارية عقد هتلر زواجه على

إيفابراون ، وانتحر هو وهى وانتحر أيضا وزير الدعاية جبلز . فقد أعطى السم لأطفاله ثم لزوجته .. ثم أطلق على نفسه الرصاص . ولم أرث لحال هتلر . فقد كان عبقريا شريرا . وكان دمويا . أباد عشرة ملايين من جنوده على طمعه وعلى مجده الشخصى ودفاعا عن نفسه .

ورأيت سجن داخاو بالقرب من مدينة نورنبرج . فى هذا السجن أحرق هتلر اليهود وخصومه السياسيين . ولكن استطاع اليهود أن يؤكدوا للعالم كذبا وإرهابا بالسلاح .. الأمريكى ورءوس الأموال الأمريكية أنه قتل منهم ستة ملايين .. ومن الغريب أنهم جاءوا يطلبون التعويض من العرب .. كأننا نحن الذين ذبحناهم وأحرقناهم - مع الأسف لم نستطع ذلك بعد ..

* * *

وكنت الصحفى المصرى الوحيد الذى حضر اجتماعات «المجمع المسكونى» وفى بيت سفيرنا لدى الفاتيكان محمد التابعى التقيت بعدد من أمراء الكنيسة الشرقية فى مصر ولبنان .

وكان المجمع المسكونى يناقش قضيتين : الأولى : هل البابا معصوم من الخطأ ؟

والثانية : يناقش الوثيقة التى تقدم بها الكاردينال الألمانى بيا والتى يطالب فيها بتبرئة اليهود من دم المسيح . مستندا إلى قول المسيح بأنهم لا يعرفون - أى إن الذين عذبوه لايعرفون من هو . وإلى أن قضية صلب المسيح قديمة جدا . وأن الصلب تم فى ليلة مظلمة عاصفة .

وأنه لابد أن يكون قد مات من الألم . ثم رفع . وبعضهم يفسر الآية

القرآنية التى تقول «وما قتلوه يقينا» . على أن الصلب لم يتم حقيقة . وإنما هو مات من شدة الألم ـ وهذا رأى د . طه حسين أيضا ، وقد سمعته منه .

وقيل أيضا إذ كان الرئيس الكاثوليكى كنيدى قد قتل فى وضح النهار ، ولم يهتد البوليس حتى الآن إلى القاتل الحقيق ، فكيف يقال إن أحدا على يقين مما حدث للمسيح منذ ١٩٤٠ عاما .

وإذا كان يهود القدس هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، فما شأن أحفاد الأحفاد !

كلام قيل . وأموال دفعت وتمت تبرئة اليهود من دم المسيح . ولم يعد الكاثوليك يلعنون اليهود فى صلواتهم . ولكن ظل الأرثوذكس يفعلون ذلك !

وكان يرافقنى الأب قنواتى ، أحد رهبان الدير الدومينكى فى القاهرة وأحد المشتغلين بالفلسفة عموما . والذى ألف جمعية «إخوان الصفا وخلان الوفا» .

وفى ذلك الوقت كان الجو باردا ، كنت ارتدى بلوفرا أسود ، وبنطلونا أسود ، وبالطو أسود .. وكان الناس ينادوننى : بأدرى .. أى : أبونا ـ على أننى بهذا الزى أقرب إلى رجال الدين . ولو رأوا ما فى يدى من كتب ومنشورات لتحققوا من أنى فعلا من رجال الدين المسيحى ، أو على الأصح من المتابعين له ..

ولم تنته دهشتى من أن يكون البابا معصوما من الخطأ ، لأنه ظل الله على الأرض ـ كل ما يفعله وما يصدره صواب ولاراد لحكمه أو قضائه ـ هل هذا ممكن ؟ وإذا أمكن هل هذا معقول ؟

* * *

وفجأة وأثناء إحدى ندوات العقاد سألنى : إن كنت رأيت مسجد أبى العباس المرسى فى الإسكندرية .

فقلت : لم أره .

قال : اذهب يا مولانا واتفرج عليه .

ولم يقل شيئا أكثر من ذلك .. وبعدها بيومين سافرت إلى الإسكندرية وتأملت كثيرا فى المسجد . ولم أجد شيئا غير عادى . وإنما لاحظت فقط أن بعض الآيات القرآنية قد كتب خطأ . ولم تصحح أخطاء هذه الآيات إلا منذ وقت قصير جدا .

وعدت أقول للعقاد : إننى ذهبت ورأيت ولم أجد شيئا غير عادى .

فقال : ولا حتى نفسك !

قلت مستدركا : طبعا شيئا من الوقار والعطف على هذا الرجل الطيب .

فقال العقاد : يا مولانا .. إن حياة الرجل أحسن من مسجده ومن ضريحه .. وأحسن من هؤلاء الدراويش .

ثم قال العقاد : إن الشيخ أبو العباس المرسى مسئول عن وقوع المصريين فى أخطاء تدل على جهلهم .. وأنا أعتقد أن كل واحد اسمه : مرسى فمن المؤكد أن أباه جاهل تماما . لماذا ؟

وقال العقاد إن أبا العباس المرسى سمى المرسى نسبة إلى مدينة مرسية فى أسبانيا . فإذا جاء واحد وأسمى ابنه المرسى كان ذلك دليلا على أنه لم يفهم معنى كلمة المرسى أو يعرف كلمة مرسية !

وقال العقاد : أنا زرت مساجد كثيرة .. لم تبهرنى العمارة ولا النقوش .. ولكن مصدر إحساسى بالعظمة نابع من داخلى .. فأنا أتذكر حياتهم

وجهادهم وعذابهم مع الناس .. ولذلك أشعر بالحزن والعطف والاحترام فى وقت واحد !

وهذا هو ما أشعر به .. فأنا أمام هذه الأحجار أو اللوحات أو التماثيل أستحضر حياة هؤلاء البارزين فى الإيمان والتقوى والزهد والعلم والفن .. واستحضار صورهم أو حياتهم أو جهادهم هو الذى يجعل قلبى ينحنى لهم . فإذا انحنى القلب تساقطت عليه الدموع .. وكأنها ترتمى عليه .. أو كأنها تقبل الأرض التى آوت الأجسام الكريمة الصافية السامية .

* * *

وعندما توفيت أمى منذ عامين أحسست أننى طفل فطموه فجأة وحرموا عليه المراضع كلها .. فلا لبن ولا ماء ولا صدرا حنونا : ولا معنى لأى شىء أعمله .. فقد كان يعنينى أن أكون عندما تريد أمى .

فلا معنى للحنان إلا عليها . ولا معنى للامتنان إلا منها .. ولا معنى للوفاء إلا البر بها .. إنها تعبت وحق لها على أن أظل أعطيها وأن أكون لها . لعلها ترضى . وكانت : يرحمها الله . راضية دائما .

وندمت بعد وفاتها أننى لم أفعل كذا وكذا .. وأننى لم أجلس إليها طويلا . وندمت على أننى لم أفلح أن أنتزع منها شيئا تريده بعد وفاتها .. لم توصنى بشىء . وإنما كانت تطلب منى أن آخذ بالى من نفسى – ولا أعرف كيف . وأن أهتم بصحتى . وأن أدفنها بعيدا عن أقاربها وعن أقاربى . وألا يمشى فى جنازتها فلان وفلان من الأقارب والأخوة . واحترمت وصيتها .

وأصبح قبرها مزارى . كل يوم . ثم كل أسبوع .. ثم كل يوم ثم كل

أسبوعين .. ثم كل يوم .. ومنعت من زيارتها . فأنا لا أستطيع أن أمسك نفسى عن الدموع والبكاء والعويل . وأنا أعلم علم اليقين . أنه لا أحد هناك . لا أحد .. هى تراب .. لا شىء هناك .. وحرصت على أن أجعل قبرها أنيقا . وأن أزرع الأشجار كأنها تنام فى ظلها .. وقبر أمى هو المكان الوحيد فى هذه الدنيا الذى أملكه . ومنذ أكثر من عشرين سنة ذهبت مع الفنان حسين بيكار والفنان عبد السلام الشريف نشترى قطعة أرض فى عزبة النخل . وكان المتر فى ذلك الوقت بخمسة قروش . ولم أشتر . وكنت أقول : أتمنى أن يكون لى موطئ قدم أقف عليه وأجعل من حوله سورا وأكتب عليه اسمى .. تمنيت أن تكون لى قطعة أرض باسمى .. وماتت أمى ليكون اسمى على قطعة أرض فى مصر الجديدة !

فما الذى هناك فى أى قبر أو متحف أو مسجد أو كنيسة أو معبد يهودى أو بوذى أو كونفوشى أو شنتوى أو زرادشتى . وما الذى هناك ؟ لا شىء .. لا أحد .. فكل شىء فى الكتب .. ومن الكتب يتولد الحب والحنان والاحترام والكراهية – وكل ما نراه أمام أعيننا رموز متنوعة لأشياء وقصص ومعارك وفشل وانتصار . لأناس عظماء لدينا . أو أعزاء علينا ..

فأنا لم أكن مثل عوليس أضع الشمع فى أذنى حتى لا أسمع . فإذا سمعت انبهرت ووقعت ضحية لما أحب . بل إننى وضعت الشمع على كل حواسى أول الأمر .. وبعد ذلك نزعته . ولم أعد أخاف أن أحب . ولا أخاف أن أكره . ولا أنزعج أن أنبهر وأن أعجب .. لم يكن طبيعيا . لأى سبب . أن أحرم نفسى متعة الحياة .. ومتعة التأثر .. فكأننى ذهبت إلى كل مكان واستعدادى عظيم لأن أنحنى .. فإذا رفعت رأسى إلى مكانه فوق كتفى بشىء آخر .. بشخص آخر .. برمز آخر .

وكل شيء له معنى .. وكل معنى يستحق التفكير .. والذى له معدة ضعيفة يعيش على «المسلوق» ـ أى الطعام الصحى الذى لا طعم له ـ فلا هو حلو ولا هو ملح ولا هو حريف .. ولكن المعدة السليمة هى التى تأكل أى طعام وكل طعام .. ثم تختار بعد ذلك أحسن الأطعمة وأنفعها وأرفعها ..

وقد حاولت عبر طرق كثيرة متداخلة معقدة أن أجد ما يناسب العقل والقلب والمعدة .

من بعيد جداً
تأتى مياه الأمطار والأنهار

من أين يأتى المطر ؟ كيف يسقط فجأة وبغزارة على مكان ما من الأرض ؟

إنه سؤال جغرافى . ولكن الشاعر الألمانى ريلكه يقول فى ديوان «الساعات» : إنه يجىء من سماوات بعيدة .. ويتصاعد من أرض نائية .. وهناك فوق ومن مكان فى غاية السمو يتكاثف . وتجىء رياح وتدفعه إلى مكان لا يعرفه .. وفجأة يسقط المطر .

وسؤال آخر من أين تجىء مياه الآبار ومن أين تنبع الأنهار الجوفية تحت الأرض ؟

والجواب : إن هذه المياه هى الأخرى قد نزلت بها الأمطار واحتفظت بها الأرض .. وتسربت وانطلقت واحتبست ثم عادت فتسربت .. ووجدت مكاناً مناسباً فى الأرض فهبطت على شكل آبار . أو انطلقت على شكل نافورات ـ هكذا يقول الجغرافى العظيم همبولت ..

وأشياء كثيرة مثل ماء المطر تنبع من زمن بعيد فى تاريخ أى إنسان .. وتتجمع وتتبدد .. وتغيب وتطفو وتندفع إلى أعلى فى الوقت المناسب .. فى الطفولة أو فى الشباب أو فى الرجولة ـ إن كثيرين من الناس ولدوا مؤمنين ..

وقليلون من الناس كبروا مؤمنين . والنادرون من الناس أدركهم الإيمان قبل أن يدركهم الموت بقليل .. فكأن إرادة عالية شاءت أن يموتوا مؤمنين..

ولو عدت إلى ورائى لرأيت بوارق كثيرة تؤكد أن شيئاً ما سوف يجرى فى نفسى .. أو تجرى به نفسى أو يتفجر فيها ، أو ينفجر بها .. فأحترق وأضىء فى وقت واحد ـ هذا ما أدركته الآن ، أو أحاول ذلك .. ولم يكن ذلك واضحاً فى يوم من الأيام .. فكل البيئة تنذر بالمطر .. تنذر بالبرق .. ولكن متى يجىء ؟ كيف يجىء ؟ لماذا يجىء ؟ لا أدعى الآن أنى عرفت . ولا فى ذلك الوقت أيضا .

إحدى البدايات لهذه الخيوط الطويلة المتشابكة التى صنعت شبكية بصيرتى لابد أن يكون أبى أو أمى .. أو هما معاً .. أو أمى فقط .

فأنا مرتبط بهما .. أو مرتبط بأمى أكثر .. لأننا نشأنا فى عزلة .. مجموعة من الأغنام الخائفة من الذئب .. وكل ما حولنا ذئب .. لماذا ؟ لا أعرف .. ولكن أصحو وأنام على الخوف من الناس ومن الزمن .. فكل الناس لهم أنياب .. وكل لحظة لها عقربان .. وكلها قد أعدت نفسها على الهجوم علينا .. ولم أسأل نفسى فى أى وقت ولماذا علينا وحدنا ؟ وماذا عندنا يغرى الناس بالاحتشاد والتعبئة ضدنا ؟ لم أسأل نفسى ولا أحداً فى أى وقت .. ولكن لا يكاد يمضى عام حتى نكون قد انتقلنا من بلد إلى بلد .. كأننا جزيرة عائمة وسط محيط هائج مائج .. المحيط يتهدد ونحن نتبدد .. المحيط يعلو ويهبط ، ونحن متلاصقون معاً .. خائفون معاً .. حول أمنا .. لا نعرف إلا هى .. ولا رأى إلا لها .. ولا حكمة إلا عقلها .. فهى التى تعرف كل شىء .. وهى التى تتنبأ بكل شىء وكنا ونحن صغار ـ نسألها هكذا : وهل يجىء خطاب من أبى ؟ فتقول حزينة : غداً .

ويجىء الغد بالخطاب .

ونسألها هكذا . وهل يبعث أبى بفلوس ؟

فتقول : ثلاثة جنيهات .

وتجىء رسالة وبها ثلاثة جنيهات .

وهل يشفى فلان من مرضه ؟ .. نعم بعد أربعة أيام .. وهل يهجمنا الذئب ؟ نعم غداً . ويجىء الذئب فى الغد

وكان الذئب يقفز من نافذة إلى بيتنا . فالبيت فى أطراف مدينة أبوحمص على حافة حديقة .. وفى البيت دواجن وأغنام وديكة رومية .. ومعظمها يجىء أحد أقاربنا ويأخذها كل شهر ..

ولا أذكر أننى ناقشت شيئاً من ذلك مع أمى . فنحن حولها وإلى جوارها وفى أحضانها فى مكان أمين . نحن نخاف وهى لا تخاف .. أو هكذا كنا نؤمن .

وفى أحد الأيام صحونا من النوم على ثعبان قد تكوم فى الأرض .. لعله كان يحتاج إلى دفء .. ونظرت إليه وأنا شديد الخوف .. ولم أنطق بكلمة .. فقد وجدت أمى قد أحاطت بى .. وأغرقت أنا فى النوم .. ولعل سبب ذلك الخوف . ولكن أمى أيقظتنى لتقول : هات المصحف . واقرأ .

ولم أستطع أن أنزل من السرير لآتى بالمصحف من مكان قريب من الثعبان . ولكن لا أدرى كيف اقتربت من الثعبان فلا هو تحرك .. ولا أنا شعرت بشىء .. كأننى لم أتحرك .. وبسرعة أمسكت المصحف .. وقالت لى : اقرأ سورة يس وأن أردد وراءك ..

وقرأت .. وكانت تردد ورائى .. وضغطت أمى على يدى لأرى .. ورأيت الثعبان كأنه عقدة تنحل .. أو كأن أصابع خفية ، أو كأن حروف القرآن قد فكته عضلة عضلة .. وإذا بالثعبان يختفى تحت السرير .. ونزلت أمى من السرير وأتت ببعض الأعشاب وأشعلت فيها النار .. وامتلأت الغرفة بالدخان .. وعرفت فيما بعد أن هذا هو « الشيخ » الذى يقال عنه الشيخ فى البيت مليح !

وفى إحدى الليالى تغيب والدى عن الحضور .. ولم تكن هذه عادته .. مضت الساعات الكبيرة من الليل .. وجاءت الساعات الصغيرة الواحدة والثانية والثالثة – ولم يجف لأمى دمع .. ولا لنا .. ولا نتساءل عن شىء .. لا كلام – بل تركناه لهذه القطرات الساخنة على الخد .. تلهب العين والوجه معاً .. وفجأة طلبت منى أمى أن آتى بالقرآن .. وأن أتلو وهى تردد ورائى .. وعندما فرغت من القراءة سمعنا دقاً على الباب وفى نفس واحد قلنا : مين ؟

لعله عفريت .. لعله ذئب .. لعله لص .. لعله واحد من الناس .. وكل الناس كذلك .

ولم يكن أحد فعلا .. أو كان أحد وأدرك أننا لم نم .. ثم اختفى .. مع أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً .. ما الذى تستطيع أم وأطفالها الصغار أن تفعل شيئاً فى هذه الساعة من الليل ؟

وعادت أمى تطلب منى أن أقرأ القرآن الكريم .. وقرأت .. ولم أكد أفرغ حتى سمعنا دقا على الباب .. ثم انفتح الباب .. إنه أبى .. وعرفنا تفاصيل الحادث .. كيف أنه اضطر إلى الشهادة فى قضية أتهم فيها صاحب العمل الذى كان أبى يعمل عنده .. ودخل صاحب العمل السجن .. وفصل أبى من عمله .

وكان لابد أن نسافر إلى بلد آخر .. وسافرنا وفى السيارة كان أبى لا يفعل شيئاً إلا تلاوة القرآن .. وأنا أردد وراءه .. فى الظروف الحزينة فقط نقرأ القرآن وننتظر المعجزة .. وكانت تجىء .

وعندما دخلت كتاب قرية الباز مركز فارسكور .. كان صاحب الكتاب قريبى .. إنه أشقر أزرق العينين .. وعشرات من أفراد أسرة أمى كذلك .. فجدتنا الكبرى فرنسية مغربية مسيحية .. وكنا نضحك على أنها لا تعرف تنطق العربية .. وكيف أننا أفضل منها .. ولم ألاحظ أنها كانت تجلس معنا فى الكتاب .. لم أفهم لأننى لم أسأل .. وكنت أسمع ولم أفهم أيضاً .. أنها دفنت فى مقابر أخرى غير التى دفنت فيها أفراد الأسرة .. وفى أحد الأيام طلب إلينا سيدنا صاحب الكتاب .. أن نذهب ليلا ونسرق « كتاباً » آخر .. وهذا الكتاب لرجل ينافسه وأحسن منه خلقاً وأكثر صبراً على متاعب التلاميذ الصغار .. وذهبنا وسرقنا بعض المقاعد فى الليل .. وعدنا بها لنجد سيدنا فى انتظارنا .. ولما تنبه بعض الناس إلى ذلك عاتبوه : كيف تعلم الأطفال السرقة ؟ ما الذى سوف يفعلونه عندما يكبرون . فقال : يا أخى موسى عليه السلام قتل واحداً مصريا !

وفى اليوم التالى اعتقل الخفراء واحداً من أقاربى بتهمة التعدى بالضرب على رجل آخر .. وهذا المضروب قد مات فعلا .. وذهبت إلى العمدة أقول له : موسى قتل .

ويسألنى العمدة وهو قريب لنا أيضاً : أنت رأيته . فقلت : سيدنا هو الذى قال .

واستدعوا سيدنا . وعدت أقول : أنت قلت : إن موسى هو الذى قتل .

وبعد ثلاث ساعات أعادونى إلى البيت . وتلقتنى أمى بالضرب العنيف .. وكانت تضربنى كثيراً .. وكانت تتباهى بأنها كسرت على رأسى سعف النخيل .. وأحياناً تقول خمسة وأحياناً تقول سبعة .. وكان يغيظ أمى ويضايقها جدا أننى كنت أتلقى الضرب ولا أبكى .. وكانت تقول : انت إيه ؟ الضرب لا يوجعك . لا يؤلمك .. لماذا لا تبكى ؟

وبعد ذلك بعشرات السنين ، عندما قرأت الفلسفة الوجودية وجدت معنى ذلك . فليس أقسى من أن تنظر لإنسان .. ولا تتكلم .. فهو يحتار .. ما الذى تقوله عيناك ولا يفصح عنه لسانك .. هل أنت تلعنه .. هل أنت تحتقره .. هل أنت تستهين به .. وعرفت ذلك عندما تضرب السيدة فى البيت خادمتها .. فلا تنطق . فهذا يضاعف من ألمها . وتشعر السيدة أن الخادمة تضربها بسياط من نظراتها .. وأن هذا هو أقسى انتقام .. ولذلك تجد السيدة نفسها مضطرة إلى أن تدفع الخادمة إلى الكلام .. أى كلام .. وهنا تستريح السيدة وتقول : هكذا .. انطقى .. اتكلمى .. قولى : آه ! ..

وفى اليوم التالى ذهبت إلى كتاب آخر ..

وبعد ذلك بأيام أخذتنى أمى إلى بيت إبراهيم باشا عبد الهادى . أحد أقاربها وطلبت منه أن ينصحنى .. ولكن الباشا لم يقل شيئاً . لأنه لم يعرف غلطى .. فقالت أمى : إنه لم يعد يقرأ القرآن .. إنه يضرب الأطفال كل يوم .. وكل يوم أقع فى مشاكل .. وكثيراً ما أتوا به من فوق النخيل وأشجار التوت .. وقد سقط مرتين .. وقد غرق منذ أيام فى النيل مع أنه لا يعرف السباحة ..

ولا أعرف من كل هذا الكلام ما الذى استراح إليه الباشا .. فقد أدنانى منه .. ووضع يده على رأسى وهو يقول : ماشاء الله .. عندك كم سنة ..

فقلت : ثمانى سنوات .

وعادت أمى إلى البيت لتقول لى : أنا قلت ألف مرة .. لست كأحد من الناس .. لابد أن نعرف أننا مختلفون ..

ولم تدوخنى عبارة قالتها أمى .. أو سمعتها فى حياتى مثل هذه العبارة .. فنحن مختلفون لماذا؟ هل لأننا غرباء فى كل أرض . هل لأننا مثل عائلة «روبنسون كروزو» فى جزيرة مهجورة أو كأنها مهجورة . هل لأن الناس كلهم يملكون أرضا . ولا نملك .. هل لأننا مثل الكرة .. مرة كرة قدم . ومرة كرة يد . ومرة كرة طاولة .. وكل يوم يضربنا المجهول إلى أرض بعيدة . كأنه مكتوب علينا ألا نستقر عند هدف .. عند شبكة . صحيح . نحن غير الناس جميعا . ولكن لماذا ؟ لم أعرف . إذن لأننا مختلفون عن الناس . ما الذى نفعله ؟ يجب أن نفعل شيئا آخر . ما هو الشىء الآخر؟ هذه هى المشكلة .

أمى تقول : إن أولادى مثل البنات . يضعون وجوهم فى الأرض إذا أحد تحدث إليهم . ويقفلون على أنفسهم الأبواب إذا زارتنا جارة أو قريبة . أولادى أصواتهم منخفضة لا يرفعون صوتا ولا عينا ولا يداً على أحد . هذه تربية . أولادى فى حالهم . من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت . أولادى ليس هم أصدقاء . فالناس أشرار جميعا . ربنا قال ذلك فى القرآن ! ..

ولكن أمي لم تشأ أن تقول إنني أخرج فقط عندما يكون هناك ميت . ورجل يقرأ القرآن . أجلس في مكان قريب من باب الصوان ، فقد حدث كثيراً أن جلست في الداخل . وجاء واحد وطلب إلى أن أنهض ليجلس هو . ولذلك أجلس بالقرب من الباب حتى إذا أنهضني أحد ، لم يشعر الحاضرون بذلك .. أما الموالد والأفراح حيث الرقص والغناء فلا أذهب مطلقا . ولعل من أسباب ذلك أن الأطفال قد تشاجروا معي ومزقوا ملابسي وهذا مالا يحدث في المآتم ..

وفي سن مبكرة أصبح مؤكداً أنني تلميذ مجتهد . وأن ترتيبي يكون الأول . وأن هذا يدهش الناس . ولكن أمي لا تعلق على ذلك بشيء . ولا أظن أنها قالت لي مرة واحدة : مبروك أو أي شيء له مثل هذا المعنى . وهي معذورة . فهي لا تقرأ ولا تكتب .. وهي مشغولة بأشياء أخرى : بالطعام وتأميننا من الخوف . والبيت كله . وربط أمتعتنا ووضع الكثير منها في جانب من البيت ، انتظاراً لخطاب يجيء من أبي يقول لنا : استعدوا نحن ذاهبون إلى بلد آخر .

ووجدت نفسي صديقا للغجر في كل مكان . بل إنني كنت أبحث عنهم . شعور غريزي هو الذي هداني إليهم . ربما لأني مثلهم . ربما لأنني من أسرة حائرة دائرة بائرة عاثرة . وأنني مثل هؤلاء الغجر أقيم في بيت من القش في مهب الريح والذئاب والخوف .. وأنني قطعة حجر متحركة . ولأنني متحرك فلا عشب ينمو على حياتي .

لا صداقة . لا زمالة . لا محبة . لا جيران . لا إخوان . لا أحد لا أحد . كأننا خارجون على القانون . كأننا على الشقة الحرام بين الحياة المدنية وحياة الغجر .. وكنت سعيداً بطفلة صغيرة ألعب معها . ولا أعرف الآن ما الذي كنت أقوله لها حتى يجيء الظهر بسرعة .. ويجيء العصر بسرعة . ويدخل الليل دون أن نشعر به . ولا ما الذي جعلني أنقل لها ما أستطيع من السكر ومن الأرز والصابون .. وربما ضربتني أمي بعد ذلك عندما سمعتني أقول لها : عندما نكبر سنتزوج . وحياة كتاب الله .

وأقسمت على المصحف . واختفت هذه الطفلة الساحرة وعالمها المسحور . عالم الغجر .. وكنت أحس دائما أنني واحد منهم . أو يجب أن أكون !

وعندما تقدمت في الدراسة الابتدائية أحسست بشيء من الحرية . وكنت أذهب إلى أبو حمص على ظهر حمار . ونجمع قصص أرسين لوبين . وكان يعدها لنا صديقنا رمضان عطية ابن صاحب محل فول عطية البكاش . وهو الآن صاحب المحل . ويقال صاحب تاكسيات . وكان يرافقني صالح مخيون . وهو أبو الممثل الشاب المعروف صالح مخيون أيضا . وانشغلت بهذه القصص البوليسية عن الطعام والشراب . وفي كل أسبوع أقرأ عشراً من روايات الجيب التي كان يصدرها عمر عبد العزيز أمين .. إنه عالم عجيب غريب . ولكنه مثير وممتع . وهذه الروايات جعلتني أتجه إلى هذا النوع من المتعة . ولم أعدل عنها إلا في سن متأخرة عندما وجدت في المنصورة كتب الأستاذ محمد صبيح عن الرسول وأبي بكر وعن القرآن وكانت هذه الكتب صغيرة . ورخيصة . ولها أغلفة لافتة يرسمها الأستاذ عبد السلام الشريف . واقتنيت كل هذه الكتب . وهي مختلفة تماما عن روايات الجيب . وإن كانت متشابهة من بعيد : فهي جميعا تبحث عن حقيقة شيء حتى نهتدي إليه ..

وأول خروج من هذه القراءات كان عندما عثرت على رواية حسين عفيف

واسمها «زينات». وهي رواية رومانسية شاعرية وفي غاية الرقة والجمال. إنها عالم آخر: أنعم وأرق. كل شيء فيه همس ولمس. وأسى وأمل.. أول مرة أعرف شيئاً اسمه الحب. ولم أكن عرفت هذه الكلمة. ولا معناها. ولا قوتها. كأنني كنت مسلوب الغرائز. وإنما كانت كل غرائزي هي: الخوف من كل شيء حولي. ومن كل ما أقول وما أعمل ومن كل دخول وخروج. ومن المدرسة ومن المدرسين ومن الامتحان. وأن تتمزق ملابسي. وأن يتسخ حذائي. وأن أسهر كثيراً فينفد غاز المصباح. وأن أجلس إلى جوار الحائط فأصاب بالروماتيزم وأسعل مثل أمي التي تمزق صدرها من السعال والدم. خوف في خوف.

وعرفت مجلة «الرسالة» التي يصدرها أحمد حسن الزيات. وعرفته هو بعد ذلك طالبا وصديقا. وآخر خطاب كتبه في حياته هو الذى بعث إلى به. يشكرنى على حسن ظنه وتقديره. يرحمه الله. وفي الرسالة اهتديت إلى العقاد. وكان العقاد نوراً باهراً وسلاسل ذهبية. وجسراً من الصلب.. ونافذة على كل الدنيا. وقوة طاغية. واتجه عقلي إليه.

وقلبي بعد ذلك. ومنذ ذلك الوقت وهو لا يغيب عن عيني وفكرى. بل إنني وأنا طالب في المنصورة الثانوية كنت ألف حول عنق كوفية كما كان يفعل العقاد.

ومن الغريب أنى كنت أمشى مثله. مع أننى لم أره في حياتي. ولكن قيل لى ذلك من الذين يعرفون العقاد. وكنت لا أقرأ الرسالة التي ليس بها مقال للعقاد. فأنا أشتريها من أجله فقط. ولا أدعي أنى كنت أفهم العقاد. ولكنني كنت أنظر إليه كعمارة عالية شامخة. ولها جدران متينة. ولها أعمدة من

الخرسانة المسلحة. إنه شيء قوى ولكن ما الذى تمثله هذه القوة؟ لا أعرف.. ولكن أعجبنى تسلسل فكره. ورأيت في ذلك نمطا من التفكير. أو قواعد للسير. أو سلما صاعداً إلى لا أعرف أين. وكان هذا هو الذى ينقصنى: أن أجد طريقا. مرسوما.. أن أجد علامات واضحة. أن أجد مصابيح على الطريق. أن أعرف من أين وإلى أين. وبدأت أفكر.

ودخلت التوجيهية أدبي. وكان ترتيبي الأول. وترتيبي الأول في مسابقة الفلسفة. وكان من الذين ترتيبهم الأول في الأدب. د. عبد الغنى محمود عميد كلية زراعة القاهرة.. وآخرون لا أعرف أين هم. من بينهم د. عبد الفتاح محسن الأستاذ في الهندسة الآن.

وكانت مثلنا العليا في ذلك الوقت هم الطلبة النابهين. وكلهم من الشعراء مثل: ماهر قنديل الكاتب اللامع في مجلة «حواء» الآن. وعوض الدحة ـ لا أعرف أين. والشاعر البشبيشي وهو أيضاً لا أعرف مكانه وأصبحت ميولى أدبية فلسفية. واتجهت إلى الفلسفة. وبهرتنى. وأطاحت بي بعيداً جداً عن أي شيء. أعطيتها نفسي. فأخذتني ولعبت برأسي وقلبي. وأصبحت ورقة في مهب الريح. وكنت أطمئن نفسي بنفسي وأقول: ما من شجرة إلا هزتها الريح. ما من سفينة إلا هزها البحر. فالاهتزاز حركة. والحركة حياة.

صحيح أن الاهتزاز ليس هو الانتقال. ولكن من الذى كان يشغل باله بالانتقال إلى مكان ما. أو إلى مذهب ما. أو رأى ما. لا أعرف شيئاً بوضوح. فأنا أجلس في حانة الفلسفة وأشرب كل ما يقدم لى. وأهتز طربا.. كل شيء جديد وكلها أسلحة في يدى أطلقها على كل المقدسات. وأفرح كما يفرح طفل باللعب يطلقه على الناس هنا وهناك. ويفزع الناس ويسعده فزعهم.

وفى يوم عاد والدى إلى البيت ليجدنى جالسا على السرير مريضا . ولكنه رأى شيئا غريبا حقا . فقد وجدنى أضع رأسى فى غطاء ماكينة الخياطة . فسألنى : ماذا تصنع ؟

وكانت المفاجأة . لقد كنت أرتل القرآن وأسمع صداه فى نفس الوقت . عندما وضعت رأسى فى غطاء ماكينة الخياطة . وكان هذا الغطاء فى ذلك الوقت نصف أسطوانى . وعرف من والدتى أننى أفعل ذلك كثيرا . ودارت مناقشة أفزعتنى . هو يقول : ألم أقل لك إنه يجب أن يدخل الأزهر . وهى تقول : لا يمكن .. إن أقاربك مهندسون وأطباء وأساتذة فى الجامعة .. ولا يمكن أن يكون ابنى من رجال الدين مثل أخيك .. يستحيل .. ويستحيل أن يكون مقرئا أو مؤذنا .. وإلا ..

و«إلا» هذه معناها أن تجمع أمى ملابسها وأن تتعلق بها وتعود إلى بيت أهلها .. فهناك طعام أوفر . ومكان أوسع .

وكنت أشفق على والدى . إنه طيب .. مرهق .. مهدود . بعيد عنا . وفى الأيام القليلة التى يمكثها معنا يسمع كل مشاكل الدنيا . وربما لذلك لا يبقى معنا كثيراً . ولم أعرف أين الحقيقة فى ذلك الوقت .. وعندما كبرت عذرتهما معا !

وعندما قرر والدى السفر بعيداً عنا قلت له : إنى رأيت النبى فى المنام !

وكأننى ارتكبت جريمة . أو أتيت عملا قطيعا . بشعاً : فقد تغير لون وجهه . وفزعت . وعندما اقترب منى أبى . قلت : لأ .. لم أره .. ولكن تهيأ لى ذلك !

ولكن أبى هدأ روعى . وأجلسنى إلى جواره وطلب منى أن أروى بالضبط

ما حدث . ورويت له . إننى رأيت شخصا مضيئا . وسط عدد كبير من الناس . وأنه جاء إلى هذا البيت . واندهشت كيف دخلوا إلى البيت . ونهضت من نومى وقد وضعت يدى على عينى . فلم أستطع النظر إليه . وسألنى أن أشرح له بالفعل ما رأيت .. كيف كان وجهه .

قلت : لا أعرف . لم أره بوضوح . ولكن سمعت من يقول إنه هو ، سمعت صوتا فى داخلى . لا خارجا عنى ..

ووجدت أبى يقبلنى ويبكى . ثم وجدته يؤجل سفره . ويصحبنى إلى أحد العلماء . ويطلب منى أن أروى له ما حدث . وسألنى الرجل العالم كيف رأيته . فقلت له : وسألنى إن كنت قد قرأت شيئا قبل النوم . قلت : لا . قال : لعلك نسيت . قلت : كنت أذاكر ..

وهنأوا والدى . لا أعرف على أى شىء . وتغيرت ملامح والدى . وأصبح أكثر رقة . وقال : يا ولدى لقد ندمت على أننى سمعت كلام والدتك . ولم أدخلك الأزهر الشريف ولكن الله سوف يكرمك ويسترك . ويكرم بك الآخرين . الله يفتح عليك !

وفى الجامعة كان يدرس لنا الفلسفة الإسلامية الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق . ولم أر شيخا بهذه الرقة وهذا الوقار . وهذا العلم . وكان يتغنى بالتاريخ الإسلامى . وكان يطلب إلينا ألا نقرأ كثيرا وإنما أن نتأمل . وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق أنيقا فى ملبسه وفى كلامه . وكان لا يمشى على الأرض وإنما يطفو عليها .. كأنه بلا حجم ولا وزن مادى . كأنه روح ـ أو هكذا كان يبدو لنا .

وكان يدرس لى التصوف د . مصطفى حلمى . وكان رجلا أعمى . وكان

مرحا محبا للنكتة . ولا أنسى يوما عندما كان يشرح فلسفة محيي الدين بن عربي . فكان يقول : المطلوب هو أن نفسر الكون من تحت لفوق ومن فوق لتحت كما يقول شكوكو .

ثم يقول : هذا شعر منثور ، ونثر مشعور ، إن صح هذا «التعبور» يا أنيس يا منصور !

طراز آخر من الدراسة الدينية والفلسفية والصوفية ..

وقد نصحني د. مصطفى حلمي أن أكتب رسالة عن «الحلاج» وعن الصوفية عموما . لأنه يلمس في كتابتي نزعة صوفية شفافة وضاءة ـ على حد قوله .

ولم أكن ألاحظ ذلك . ولا أعرف كيف رأى ذلك في نفسي أو في المقالات القليلة التي أكتبها ..

وفي هذه الأثناء وقع في يدي كتاب للدكتور عبد الرحمن بدوي اسمه «من تاريخ الإلحاد في الإسلام» . هذا الكتاب اعترض طريقي ، وطمس عيني ، وتشعبت تحت قدمي السبل . وامتلأت الدنيا حولي بنجوم تشد يدي إلى هنا .. بل إلى هناك .. بل .. لا هنا ولا هناك .. وإنما الضياع هذا هو الحل الوحيد لكل مشاكلنا . ألا نقول لا ولا نعم أن نتوقف عن الحكم على شيء . لأنه لا شيء هنا أو هناك ؟

وامتدت يدي إلى اعترافات القديس أوغسطين الذي آمن بعد العشرين من عمره . كان له دين آخر . وكانت أمه تتبعه من إيطاليا إلى قرطاج في تونس . وكانت تصلي من أجله . وكان القديس أوغسطين يقول : إن مونيكا أمي هي مصدر تعاستي . أريد أن أرضيها . ولكني لا أعرف كيف . أريد أن أكون مسيحيا كاثوليكيا قبل أن تموت . ولكن قلبي لا يطاوعني . وعقلي قد تمرد على قلبي منذ وقت طويل . فأنا لا أرى ما تراه . ولا أسمع ما تسمعه . ولا أدري من تصلي له . ولا أرى نوراً في السماء ، ولا نوراً في قلبي . اللهم اهدني إليك ، اهدني لكي أسعد أمي ..

وعندما سافر القديس أوغسطين بأمه إلى روما ماتت في عرض البحر . وحزن عليها ، وحزن أكثر على أنه لم يكن قد وضع اتجاهه تماما . وآمن بعد ذلك .. ولكن بعد أن ماتت أمه بسنوات . وكان ندمه على اتجاهه عظيما . فقد آمن وماتت أمه دون أن تعرف ذلك . ولكن لم يذهب أمله في دموعه . فالموت جمعهما معا . والتقيا فوق .. في السماء !

وهي تجربة عظيمة قام بها القديس أوغسطين .. فاعترافاته مشبوبة النار والشرار . وهي دافئة سخية مقدسة ..

واهتديت إلى كتاب «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي . وهزني هذا الكتاب . لأنه كلمني بعبارة مودرن . إني أقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسي ديكارت في كتابه المشهور «مقال في المنهج» . فهو يبدأ بالشك ثم ينتهي إلى اليقين . ولكن الغزالي أبسط وأروع وأعمق . ولكن ديكارت أكثر تعمقا في علم النفس والمنطق . والغزالي ما يزال أروع . تجرد من كل شيء ليؤمن بكل شيء . نزل إلى كل بحر ، وطاف كل محيط ليرسوا على بر الأمان بالعلم والإيمان .

هداني الغزالي . وثبت الأرض تحت قدمي . وثبت الدنيا كلها أمامي . هنا السماء وهنا الأرض . وهنا العقل وهنا النقل . وهنا الكتاب وهنا الحديث

وهنا الاجتهاد . ولكن أين الوقت ؟ نعم أين الوقت للتأمل فى كل شىء ، ونحن ما نزال طلبة نغرق فى الكتب ولا نرفع رءوسنا إلا بعد الامتحان . حتى إذا انتهى الامتحان . كانت رقابنا قد انكسرت من القراءة . وظهورنا من الجلوس وعيوننا من الضوء الضعيف والحروف الصغيرة . وكأن علينا أن نستريح وأن نواصل القراءة وأن نبحث عن لقمة العيش . وفى البحث عن لقمة العيش كان من الصعب أن نعيش ، وإذا عشنا من الصعب أن نواصل القراءة ، وإذا قرأنا فحاجتنا إلى القراءة شديدة . وما أكثر ما يصدر من كتب . وما أصعب أن نمضغ ما ابتلعناه . وما أشق أن نهضم ما مضغناه . وما أعسر أن تمتص أمعاؤنا المرتجفة كل ما هضمناه ..

وأتذكر ما قاله جان جاك روسو فى الصفحات الأولى من «الاعترافات» يقول : ماتت أمى . وحزن أبى . وكان يذكرنى دائما بها . وكان يقول لى أنت صورتها الحية . ومع ذلك مات أبى فى أحضان زوجة أخرى .. وفى إحدى المرات سألنى : أنت لم تعد تذكرنى بأمك . فقلت : إذن لنبك معا ..

ويقول روسو: «هذان هما الاثنان اللذان ألفا كتاب حياتى . والآن أنت تعرف لماذا جئت شديد الحساسية وشديد الرقة . وكان أبى سعيداً برقتى وعطفى ، ولم يعرف أننى أشد تعاسة منه بذلك ! » .

فالإنسان كما صنعته أمه .. أو ذكرى أمه . فمستقبل أى طفل هو ماضى أمه !

وآدم قد أسمى زوجته «حواء» ومعناه حياة ، لأنها أم الحياة كلها !

وتذكرت حواراً لأوسكار وايلد فى مسرحية «امرأة لا أهمية لها» :

ـ كل النساء مثل أمهاتهن . وهذه مأساتهن .

ـ لكن الرجال لا يفعلون ذلك . وهذه مأساتهم !

ولا أعرف بالضبط الآن لماذا كنت أتحامل على أم الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فهذا الفيلسوف متشائم . ولكن تشاؤمه فى غاية الروعة والجمال .

ويقال إنه حاول أن يدخل إلى الصالون الأدبى الذى أقامته أمه فى بيتها . لا لشىء إلا لكى يعرض إنتاجه الفلسفى على الشاعر العظيم جيته . ولقى أمه على السلم . وغضبت من أنه دخل بلا إذن .. وثارت عليه . وصرخ فيها : مهما فعلت .. ومهما قابلت . فلن يعرفك أحد إلا بأنك أم شوبنهاور !

وقد حدث ذلك . ولما قرأت عن شوبنهاور أكثر . عذرت أمه . وأنا أعذر كل الأمهات . لأننى أعذر أمى . وأرى أنها مضطرة إلى القسوة على أبنائها . فالحياة أقسى عليها من قسوتها على أولادها . وهى لا تفعل ذلك إلا مضطرة . ولا أقول كل الأمهات ، ولكن بعض الأمهات !

ويقال إنه حاول أن يدخل إلى الصالون الأدبى الذى أقامته أمه فى بيتها . لا لشىء إلا لكى يعرض إنتاجه الفلسفى على الشاعر العظيم جيته . ولقى أمه على السلم . وغضبت من أنه دخل بلا إذن .. وثارت عليه . وصرخ فيها : مهما فعلت .. ومهما قابلت . فلن يعرفك أحد إلا بأنك أم شوبنهاور !

وقد حدث ذلك . ولما قرأت عن شوبنهاور أكثر . عذرت أمه . وأنا أعذر كل الأمهات . لأننى أعذر أمى . وأرى أنها مضطرة إلى القسوة على أبنائها . فالحياة أقسى عليها من قسوتها على أولادها . وهى لا تفعل ذلك إلا مضطرة . ولا أقول كل الأمهات ، ولكن بعض الأمهات !

ومن غير مناسبة كتبت مقالا فى مجلة «كلية الآداب» عن الأم . لا مناسبة

أبداً إلا فى داخل نفسى . والمقال أمامى الآن . وأجد فيه هذه الآيات :

« وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » . « والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » . « ولا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » . « اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك » . « وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا » . « اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده » . « ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » . « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . « أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير » . « وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا » . « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » .

وآيات أخرى كثيرة . ولا بد أن يكون سبب ذلك إحساسى بأننى سوف أتخرج فى الجامعة . وسوف يكون على أن أؤدى ما وجب . أن أفعل لوالدى ما فعلاه من أجلى .. إنهما فعلا ما يستطيعان . وما يستطيعان قليل جداً . ولكنهما فعلا وأعطيا كل ما عندهما من المال والصحة والشقاء والهوان .. وكأننى كنت أعاهد نفسى على أن أفعل من أجلهما شيئا .

وفى يوم غريب مات أبى . كان مسجى على فراش فى عوامة فى النيل تملكها أختى الكبرى . واستدعانى قبل وفاته بساعات . وانزعجت يوم استدعانى فقد حدث ذلك أكثر من مرة عندما استدعانى بعض أقاربى ليقول آخر شىء .. وذهبت وأنا لا أستطيع أن أراه مريضا ولا أقوى على حزنه المكتوم وألمه الدفين . ومن الذى يستطيع . وقربت منه وقبلت يده وسحب المصحف من تحت رأسه ليقول : تعلمنى أن تدرس دائما . فلا شىء يرفع أحداً إلا العلم . قلت : أعاهدك .

وأرجع رأسه إلى الوراء ليسألنى وكل أمل الدنيا وسعادتها فى عينيه . قال وكأنه لا يسألنى : نجحت يا ولدى . قلت : الحمد لله .

ـ وكان ترتيبك الأول .

ـ نعم .

ـ وماذا تصنع بعد ذلك ..

ـ قابلت د . شوقى ضيف . وسوف يبعث بى إلى د . عبد الوهاب عزام .

ـ لتفعل ماذا ؟

ـ لأعمل .

ـ وبعد ذلك .

ـ أنفق على صحتك وعلى صحة أمى

ـ الحمد لله ..

وتراجع برأسه إلى العالم الآخر . ولم أجد فى عينى دمعة . لقد أخذها معه إلى حيث لا أعرف . أين دموعى ؟ أين حبى له ؟ أين خوفى عليه .. وما معنى هذا العهد . ولماذا يموت يوم نجحت . وما الذى أدرسه هل هو القرآن فقط .. أم أنه جعلنى أقسم على القرآن أن أواصل العلم . العلم ما أوسعه .. وقد أخذت من كل العلوم : الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الحيوان وتاريخ الأديان كلها ..

ولم أمش فى جنازته . لقد مات فى قلبى . فى أعماقى . فكل خطوة أخطوها هى جنازته فأنا أضحك معه وأراه فى يقظتى وفى نومى . وفى يقظتى أكثر . وهذا الذى أراه هو الذى دفعنى إلى الإيمان بعالم الروح . فالذى أراه بهذا الوضوح لا يمكن أن يكون وهما ـ وهذه قصة أخرى طويلة ..

وقصص أخرى طويلة .. فالبدايات لكل شىء بعيدة . ومعقدة . وترجع إلى الطفولة والشباب والرجولة . وإلى تجارب الحياة ومعاناة الفكر ، والعناء فى الاهتداء إلى ميناء على شاطئ بحور الإيمان بالأديان ..

وفكرت ـ ولا أعرف لماذا بعد وفات أبى ـ أن أؤلف كتابا عن الرسول عليه السلام . ووجدت أننى لا أستطيع . فأنا لا أعرف شيئا له قيمة من الدين . وكتب الدين التى قرأتها قليلة . فأنا أولا ثقافتى غربية وثانيا عربية وثالثا دينية عامة ورابعا إسلامية .. إذن فأنا لست مؤهلا لشىء من هذا . ولكن استطاع أساتذة كبار أن يفعلوا ذلك : استطاع العقاد وطه حسين والحكيم وقبلهم محمد حسين هيكل .

وكنت قد عرفت الساخر الشاعر الممزق كامل الشناوى . وفى يوم سألنا : من الذى يمكن أن يدخل الجنة من كُتَّاب سيرة الرسول : الدكتور هيكل أو طه حسين أو العقاد أو الحكيم !

وانفتح باب للمناقشة . واختلفنا فيمن الذى يستحق الجنة ولماذا .

فقال كامل الشناوى : ولا واحد من هؤلاء فقد كسبوا من كتبهم عن الرسول ألوف الجنيهات . ولذلك لا يستحقون أجراً من الله على شىء .. لقد صفوا حسابهم مع الله ورسوله !

وعلى الرغم من أنها عبارة ساخرة ، لكنها استقرت فى نفسى . وأوقفت كل تفكير فى إصدار كتاب عن الرسول . ولابد أن تكون رغبتى فى إصدار هذا الكتاب هو إحياء ذكرى «محمد» الذى هو والدى أيضا . أو هو نوع من الامتنان له .. ولكن ما قيمة الامتنان لمن لا يشعر به . مات . راح . ولم يشأ الله أن أصنع له شيئا . أن أكافئه على ما بذل من أجلى ومن أجل إخوتى . ولم أنسه

يوما . وإنما كلما أكلت شيئا . أو سافرت إلى مكان . أو لبست . أوكسبت أقول لنفسى : لوكان والدى حيا ..

وأعتقد أنى أعطيت أمى كل ما تمنت ، وكل ما تمنى والدى أيضا . وأسعدنى ذلك . وأشقانى أيضا . فأنا أتمنى الكثير لها . ولكن لا أقدر إلا على القليل. ولم أفلح فى أن أقنعها بعلاج . وكانت تخفى عنى مرضها حتى جاء الموت فأنقذنا نحن الاثنين من مرضها ومن حزنى عليها ..

وكنت أخاف على أمى أن تذهب إلى الأرض المقدسة . فالرحلة شاقة . وهى مريضة وربما ماتت هناك . وكنت أقول لها : إن البحر مياهه جفت .. وأقول إن ألوف الحجاج قد ماتوا من ضربة الشمس .

وكانت تقول لى : ولكن أحداً لا يقول شيئا من ذلك . فأقول لها : إننا نعرف ذلك فى الصحف . ولكن الدولة لا تسمح بنشر هذه الأنباء حتى لا ينزعج الناس !

وكانت تسكت مصدقة . أو تبدو كذلك . وقبل وفاتها بسنوات وجدت لها صديقة وقررت الاثنتان أن تسافرا لأداء فريضة الحج . ولم أجد حلا لهذا الموقف . وخشيت عليها من مشقة الطريق . ويشاء الله أن تموت هذه الصديقة . وكان حزن أمى كبيراً . إنها كانت تتمنى أن تموت هناك .. ولكن هذه مشيئة الله ..

ووعدتها إن هى شفيت أن أساعدها على حج بيت الله . وأقسمت على ذلك ..

واختارها الله إلى جواره وفى قلبها نية الحج إلى بيته . وفى قلبى امل أن أحقق لها ذلك ..

وعرفت الطريق إلى قبرها . وفى يدى كتاب الله . أقرأ وأقرأ . وأهدى ما قرأت إلى روحها ، والتى أعلم أنها ليست هناك فى قبرها . فالأرواح ليس لها «مكان» .. ولكن لم أفكر فى ذلك . وكل يوم فى يدى هذا الكتاب . أقرأ وتجف دموعى . وهى التى استعصت على عينى يوم مات أبى . فكأننى أبكيهما فى وقت واحد ..

وأحسست بالموت . وأحسست بأننى وحدى فى هذه الدنيا . الكل مات . لم يعد أحد . لم أستطع أن يكون لى أحد . وليست حياتى كلها إلا محاولة مستمرة ألا أكون وحدى . وألا أكون بمفردى . فإذا قرأت فلأننى أريد أن أسمع صوت إنسان آخر .. ولما اشتغلت بالكتابة وجدت أننى أقول للناس ولا أسمع ما يقولون . ولما اشتغلت بتدريس الفلسفة فى الجامعة ، فلكى أرى وأسمع ما يقول الناس .. فأنا كنت أفكر بصوت عال . وأسمع منهم ما يعجبهم وما لا يعجبهم . وبذلك لا أكون وحدى . وإذا أغرقت نفسى فى الناس فلكى لا أجدنى وحدى .. ولكنى ظللت وحدى . وكلما وجدت نفسى بكيت على حالى . وأدركت أن هذه أيضا نهايتى . كما بدأت خائفا سأموت خائفا . لقد ولدت لكى أموت كما ولدت . فى الوحدة . والخوف لا شىء لى . لا أملك شيئا . ضاع كل ما كان لى . راح الأب والأم .. راح الوريد والشريان . راح القلب والعقل . راحت البداية وسوف تأتى النهاية بسرعة .. وفى مكتبى أقفل الباب وأبكى . وإذا سمعت طرقا على الباب وضعت القطرة فى عينى .. حتى أصبحت أخجل من نفسى . وأخجل من عجز الناس عن التصديق . فهم لا يعرفون ما الذى أبكيه ولا ما الذى أبكى عليه .. إننى أبكى على نفسى .. بعضى يبكى على بعضى .. إننى أندب ميتا فى داخلى .. وأحمله .. ويحملنى .. ولا أعرف أينا الكفن وأينا المشيعون .. وأينا الفاقد وأينا الفقيد ..

وضاق الناس بحالتى . وأخفيتها عن العيون . وضاق الناس بما أكتب عن أمى .

وقال الأبناء : ليس صغيراً .

وقالت الأمهات : ياليت أبناءنا كانوا مثلك أو واحداً على عشرة منك ـ حتى على الموت لا أخلو من الحسد .

ـ ولكن ما فائدة ما أقول ؟

ـ لا شىء !

ـ من الذى يسمعنى ؟

ـ لا أحد !

ما نهاية ما أقول وما أقرأ ؟ ومن الذى يستريح ؟ أنا أو هى أو هو ؟

ـ إننى من المؤكد أستريح .

ـ ولكن إلى ماذا ؟

ـ إلى أننى أقول شيئا يريحنى وأؤمن ـ أو أصبحت أؤمن ـ بأنه يريح روحها .

ـ من قال ذلك ؟

ـ لا أعرف . ولكن هذا هو شعورى . إننى أراها . أسمعها . أحلم بها . وأحلامى صادقة . فما أراه فى نومى يتحقق بشكل ما . هذه حقيقة . وهى التى دفعتنى وألقت بى فى عالم الروح والإيمان بها وأن هناك قوى أخرى . وأن هناك قوة القوى . عاقلة حكيمة . ونحن أمامها لسنا إلا نملا يعيش على نملة اسمها الأرض فى مجهول شاسع واسع . لا نعرف له حتى الآن طولا ولا عرضا . بل إن العالم الكبير اينشتين اليهودى يقول : إن كل ما يراه يدل على أن الكون يتسع .

ويتساءل : ولكن ما هى سعة الكون . لا أحد يعرف .. ولكن كل شىء

يدل على أنه يتجه بعيداً عنا بملايين الملايين من السنين الضوئية !

ويوم أرسل أحد الأمريكان برقية يسأله فيها : هل تؤمن بالله .

فأجاب : ليس أمام أى أحد إلا ذلك . وإلا فلينظر إلى السماء وليسمع موسيقاها الرياضية . وليقل بعد ذلك من هو هذا الموسيقار المهندس العظيم الذى وراء كل شيء وكل نفس وكل عقل ؟ !

واتجهت إلى دراسة سكان الكواكب الأخرى . لابد أن يكون هناك أناس أكثر عقلا أو أقل تطوراً . تماما كما فى هذه الأرض . بدائيون ورواد فضاء . وسحرة وعلماء صواريخ ..

واتجهت بعد ذلك إلى دراسة ظواهر الروح والانشغال بها .. والإيمان بها .. والإيمان باجتهادات العلماء الملحدين ، بإثبات أن الروح موجودة وأنها تظهر بأشكال مختلفة للناس .. وبأننى وأنك وأننا جميعا لا شيء . وإنما مرحلة عابرة فى حياة طويلة للإنسان لا يعرف متى تنتهى ولا ما هى الحكمة منها ؟ فنحن لا نستطيع أن نعرف ذلك . إلا إذا استطاع النمل أو النحل فى بيتك أن يعرف معنى ما تنشره الصحف أو تقوله الاذاعة أو تقوله أنت عن النحل .. لا هى تعرف . ولا أنت تعرف . ولكن الذى يريح العقل هو أن يهتدى إلى شيء . ولن تهتدى إلى كل شيء فلا علم عندك ولا عمر أيضا .

وإن لم تجد راحتك بنفسك . فلن يهيئها لك أحد .

والعبارة الهندية تقول : أيا كان اتجاهك . أين كان موقفك . وموقعك .. وقبلتك . فإن الله هو الذى يهديك ويستجيب لك !

* * *

آمنت بالله . !

فمن أين جاء المطر . ومن أين جاء البرق . ومن أين جاءت مياه الآبار والأنهار ؟ . جاءت من مكان بعيد . ولحظة فى الزمان بعيدة .. من أيام طفولتك .. ومن أناس سبقوك إلى الحياة . والخوف منها والحرص عليها . ومن أناس علموك كيف تستضيء وتضيء وتضاء لتهتدى وتهدى !

صورة رسمتها وعشت عليها
قد غيرتها !!

ما الذى جرى لى فى العشرين عاما الماضية ؟ كثير جدا جرى لى وجرى بى . ولكن أين اتجهت ؟ إلى كل اتجاه .. فقد كنت مثل العنكبوت له عشرون عينا . ومشيت وراء عيونى . يمينا وشمالا واتجهت إلى أعلى حافة الرأس . ونظرت إلى أسفل عالى الرأس .

وأحسست كأننى أبنى بيوتا منيعة فوق الأرض أو تحت الأرض . إنها حمتنى من مخاوفى . فالإنسان صانع مخاوفه . وكل إنسان هو شيطان نفسه .. ولكن فى نفس الوقت حرمتنى الماء والهواء والضوء .

كأننى مثل رواد الفضاء السوفيت الذين أقاموا فى خندق تحت الأرض يجربون كيف تكون حياتهم تحت سطح القمر . فماذا فعلوا ؟ إنهم حولوا البول إلى ماء يشربونه . وحولوا البراز إلى لحم يأكلونه ـ منتهى العظمة العلمية والعبقرية التكنولوجية . ولكن ما الذى شربوه وكيف كان طعمه ، وما الذى أكلوه وكيف استطعموه ؟!.

كأننى خرجت من قمقم ودخلت فى قمقم أكبر . وخرجت لأدخل فى قمقم أطول وأعرض .. وكل شىء حولى من الزجاج الشفاف . لكى أرى أوضح وأنا آمن .. ولكنى عندما اقتربت من جدران القمقم تحول الزجاج إلى شىء معتم لأننى أتنفس بالقرب منه .. وبالقرب من كل جدار .. فأنا الذى صنعت الزجاج . وأنا

الذى حولته إلى حجر معتم .. فأنا الذى أظلمت أمام عينى كل طريق للمعرفة !

بل أكثر من ذلك أننى نظرت إلى كل شىء حولى .. ولكن لم أعرف الحجم الحقيقى للأشياء والناس .. والوزن الحقيقى لكل قيمة . لماذا؟ لأننى كنت أستخدم نظارات مختلفة الألوان والزوايا .. فبعضها يجعل الدنيا واضحة وصغيرة . مثل الميكروسكوب يجعل الصغير جدا كبيرا جدا . ولكن ماهو الحجم الحقيقى للدنيا ؟ ما قيمتها ؟ وما ضرورتى .. وما أهمية أن يكون لى رأى ؟ وأن يكون هناك أى رأى .. ثم ما أهمية أن يبحث الإنسان عن المعنى وراء كل شىء . وإذا عرف فما قيمة المعرفة .. وأيهما أفضل هذا الحائر البائر الدائر أو هذا التاجر الداعر الذى يتحول فى يديه كل شىء إلى سلعة لها ثمن ولها قيمة .. وهل يستطيع الباحث عن المعنى أن يكون تاجرا . وهل يستطيع الباحث عن الثمن أن يكون مفكرا أو فيلسوفا !.

سئل الحكيم اليونانى ديوجين : أيهما أفضل عندك الرجل الحكيم أو الرجل الغنى ؟

فقال : بل الرجل الحكيم .

فقيل له : وكيف تفسر وقوف الحكماء بأبواب الأغنياء . وعدم وقوف الأغنياء ببيوت الحكماء ؟

فقال ديوجين : لأن الحكماء يعرفون قيمة الثراء والأغنياء لا يعرفون قيمة الحكمة !

ولكنه رأى رجل حكيم مفلس عاش عاريا . ونام مع الكلاب . وهو سعيد بذلك !

ودار رأسى حولى . وكأنه « ديك الريح » يتجه إلى كل ناحية .. وليس له

أفق . ولا وجهة ولا قبلة . والذى ليس له هدف ، فكل الشوارع عنده سواء .. وكانت كل الفلسفات والديانات عندى سواء .. فليس لى هدف ، وليس عندى أى أمل فى شىء ! وطالت حيرتى . وزادت متاعبى . وتقلبت على كل مخدة . وتوجعت من كل سرير .. وضقت بكل من يقرب منى .. فقد أحسست أن الناس كلهم مثل القنفذ شائكون وأنا عريان النفس ، مجرد الفكر ، ممزق القلب .

وكنت أتصور أننى استرحت إلى ما اهتديت إليه . وأننى أدمنت التفكير . ولأننى أدمنت لم أعد أميز بين فكرة وفكرة .. ففقدت لذة الأشياء وانعدمت فوارق اللون ..

وفجأة توقفت عن الأديان . لا أعرف كيف .. ربما لأنى تعبت . وربما لأننى انتقلت إلى أديان أخرى . وتوجعت أكثر .. تماما كالذى يعتاد على الكيف أو المخدرات ثم يوقفها . كل شىء فيه يتألم . فكل شىء فيه قد اعتاد على أن يتوكأ على شىء تحت رجليه وتحت رأسه ووراء ظهره وأمام عينيه .. فالعينان تستندان إلى منظار مريح . وأنا أعتمد على عصا . ورجلاى تعتمدان على بساط ينسحب من تحتها ، فأنتقل دون حركة . لأن البساط السحرى هو الذى يحملنى .. وفجأة سقط المنظار والعصا وانسحبت المخدات وهرب البساط .. وكادت حواسى تهرب منى ..

تراءت أمامى صورة قديمة وجديدة من الماضى البعيد والحاضر الأليم والمستقبل المخيف . فالإنسان لا يستطيع أن يمشى فى خط مستقيم . ولا أن يفكر فى دروب مستقيمة .. فالذاكرة تروح وتجىء . مثل موج البحر ومثل هبات النسيم .. ورأيت كأنى جيلفر فى بلاد الأقزام . ربطونى بالخيوط ولم أعرف كيف أتخلص منها .. ورأيت نفسى مثل بروميثيوس تأكل الصقور قلبى . وأنا مخدر . فأرى

نفسى مأكولا منهوبا وأخاف مما أرى . وأحمد الله أننى لا أحس بشىء .. وأخاف من هذه الفكرة .. فلا أرفع بها صوتى فيجردنى الله من نعمة بلادة الحس أو انعدام الحس .. فأصرخ مع كل ضربة منقار ومع كل قطرة دم وقطعة لحم .. وتصورت نفسى ذلك الإنسان الذى خطفه النسر فى قصص « ألف ليلة وليلة » .. ارتفع به إلى أقصى درجات العذاب .. وانحط به فوق قمة جبل .. صحيح أنه ارتفع به . ولكن خوفه من السقوط كان أعمق .. فقد سقط على قمة .. منتهى السمو والألم !

فما الذى أقمته لنفسى . ما الذى نسجته لنفسى حول نفسى ؟ فى العشرين عاما الماضية أحسست أننى مثل « دودة القز » نسجت لنفسى بيتا ناعما رقيقا خانقا ! كفنا ونعشا فى غاية الأناقة . ومت فيه .. أو كأننى مت فيه !

ولا نهاية للصور التى رسمتها لنفسى . أو رسمتها لغيرى .. ومن المؤكد أن حيرتى ليس لها قرار .. وليس ضرب الأمثلة وذكر قصص التاريخ والخرافات إلا دليلا على أن كل شىء حاضر فى ذهنى . وإلا أننى غائب عن كل شىء . فأنا سجين نفسى ، وأنا عبد لأفكارى .. وأن الحر حقيقة هو الذى يقيد أفكاره . ويطلق خياله .. أو هو الذى يأمر حواسه . كأنها حاشية الملك . فإذا هى تفعل ما يشاء .. ولكننى أحسست دائما أننى أقلية مضطهدة . وأن الأغلبية من الحواس والأفكار والمخاوف والشكوك هى التى أقعدتنى إلى الأرض .. وحولتنى إلى الأرض تدوسها كل الأقدام ..

وعلى سبيل المثال تذكرت دائما قصة « أوديب » .. فقد قالت العرافة لأبيه الملك : سوف يقتلك أحد أولادك ..

وابتعد الملك عن زوجته حتى لا يكون له أبناء . وهو قرار يذوب مع الكأس

أو النشوة . وحملت زوجته وأنجب ولدا . وفزع الأب وطلب من زوجته أن ترميه على الجبل حتى الموت . وأخذته الخادمة وأشفقت عليه . وعلقته من قدميه حتى تورمتا . ولذلك سمى أوديب أى ذو القدمين المتفوختين . وجاء رجل وأخذه ونقله إلى بيت . إلى سيدة ليس لها أولاد . وفى يوم قال له أحد الأطفال حسدا أو حقدا عليه . إنه ابن غير شرعى . وغضب أوديب . وذهب إلى العرافة .

فقالت : أنت كذلك . ولا تذهب إلى بيت أبيك وإلا قتلته وتزوجت أمك !

وذهب أوديب الشاب ولقى بعض الجنود فقاتلهم . حتى قتلهم . وكان من بينهم أبوه . وولى الملك رجل آخر تزوج أم أوديب . وظهر وحش فى الطريق يقتل كل إنسان لا يجيب على سؤال : وكان السؤال من هو الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح وعلى اثنين فى الظهر وعلى ثلاث عند الغروب .

وعرف أوديب حل هذا اللغز فقال له . إنه الإنسان . يحبو على أربع وهو طفل . ويمشى على رجلين وهو شاب ويعتمد على عصا وهو شيخ .

فانتحر الوحش لأن حقيقته قد انكشفت . (وكان الفيلسوف الألمانى شوبنهور يلبس خاتما عليه صورة هذا الوحش وقد ألقى بنفسه فى الهاوية . لأن شوبنهور قد عرف الحقيقة) . وكافأه الملك على ذلك بأن أجلسه على العرش وتزوج أوديب أمه . وأنجب منها ولدين وبنتين .

وانتشر طاعون . وقالت العرافة لن يذهب هذا الطاعون إلا إذا خرج الرجل الذى قتل الملك . واستطاع أوديب أن يعرف من هو القاتل . إنه هو نفسه . قتل أباه وتزوج أمه . وحزن لهذه الفاجعة . وفقأ عينيه بيديه .. وسحبته أخته؟ وانتحر .. ويقال إن أمه أيضا انتحرت عندما عرفت الحقيقة !

فما المعنى ؟

المعنى أن أسئلة صعبة وجهت إلى الناس . وأن واحدا استطاع أن يجيب عنها . فما الذى أفاد من هذه البراعة وهذا الذكاء : خراب الدنيا كلها ومأساته هو فى النهاية !

والمثل الشعبى المصرى يقول : آفتى معرفتى ، وراحتى ما اعرفشى .. فالمعرفة آفة . والجهل راحة ـ لقد عرفت الكثير فما أراحنى !

وأحسست كأنى موسى عليه السلام ذلك الطفل الصغير ألقته أمه فى النيل خوفا من فرعون . وذهبت أخته ترقبه من بعيد . فلما التقطته امرأة فرعون استراحت الأم إلى أنه هناك . ولكن الطفل لم يرضع أى صدر . رفض الصدور كلها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم . وهم له ناصحون » ..

وجاءت أمه ترضعه ..

ولكنى لست وحيدا فى النيل . لا أم ولا أخت .. ولا وعد بمرضعة جديدة .. فقد قبلت كل المراضع . وذقت كل لبن . وارتميت على كل صدر . وفقدت لذة حنان الأم . أو المذهب الأم . أو الدين الأم .. فقد وجدت كل شىء . ولكننى لم أتذوق شيئا . الكل موجود . وليس موجودا .

وصور أخرى كثيرة تعلب بها رأسى فى كل اتجاه . وكل يوم وكل ليلة . وكل كتاب .

وفكرت فى الخلاص من متاعبى وعذابى بالموت . وقررت وأنا فى مدينة هافانا بكوبا أن ألقى بنفسى من فندق « كوبا الحرة » كل شىء جميل . ولأنه جميل ولأننى لا أتذوق الألوان والأصوات والأفكار .. فكأننى ولدت أعمى وأخرس وأصم : لا أعرف أن أقول شيئا عن كل ما حولى .. وهذه مناسبة لأن يكون موتى

بقعة سوداء أو دامية فى هذا الجمال وهذه الحياة . وفى يوم طلبت يوسف السباعى . وقلت له عندى شىء هام أريد أن أقوله لك . ويوسف السباعى على عادته مرح . وقادر على أن يحول كل شىء إلى ابتسامة أو نكتة . وأمام هذه البهجة لم أجد ما أقوله واخترعت قصة لا أساس لها .. وفكرت بعد ذلك : هل هذه فكرة حقيقية ؟ أو أنها فكرة طائشة ؟

هل انتقلت إلى نفسى عدوى الأديب همنجواى الذى انتحر والذى له بيت فى هافانا ؟. وما الذى يقال بعد ذلك تفسيرا لما حدث ؟ من أى مذهب سياسى هو ؟ وما الذى ضايقه ؟ هل حاول أن يجعل موته عالميا ، فهنا تلتقى وفود القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ؟ ولكن من يعرفنى من هؤلاء ؟ ولا واحد من الألف مليون من الصفر والسود والبيض ؟ لا شىء ! لا معنى !

ولكن مادمت أسأل . عما سوف يقوله الناس : فأنا إذن لا أزال أهتم بالناس وما يقوله الناس . إذن ليست هذه النية صادقة وليس المعنى واضحا فى رأسى ..

وفى إحدى الليالى تحدثت إلى د . رفعت المحجوب ، وكان شريكى فى غرفتى : وكان زميلى فى المنصورة الثانوية ، وفزنا بجائزة الدولة فى عام واحد : ما رأيك فى الانتحار ؟

فأجاب بمنتهى الهدوء وكأنه يتحدث عن بديهية رياضية وقال : جنون !

ـ ولماذا !

ـ هرب من الحياة .

ـ ولماذا لا يهرب الناس من الحياة ما دامت لا تريحهم ؟

ـ يحاولون . يكافحون . يقفون على حقيقة ثابتة .. أكثر هؤلاء المنتحرين جهلة .

ـ لا أظن أننى جاهل ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ صحيح ما دخلى أنا ؟!

وأكملت حديثى مع نفسى : وما معنى هذه الحياة ؟.

ـ لامعنى لها . فنحن الذين نجعل لها المعنى . ونجعل لأنفسنا القيمة . فمن المؤكد أن هذه الحياة كانت وسوف تكون من غيرى .. فوجودى لاضرورة له . لست ضروريا لأى أحد ..

ـ إذن لماذا استراح أناس آخرون إلى حياتهم ؟

ـ أحسدهم على ذلك . ولكن لا أعرف كيف . إن كل إنسان قد اختار مايريحه . أو استراح إلى الذى اختاره . وأبعد رأسه عن هذه السخافات الفلسفية والدينية والتاريخية التى حشد بها رأسى حتى انفجر .. إن الذى يتخيل فى كل ليلة أن فى غرفته عفاريت .. وأن فى فراشه حشرات .. وأنه لن ينام حتى الصباح .. وأنه لو أغفى ولو لحظة فسوف يموت .. إن مثل الإنسان « المسكون » لن ينام . !

وقد نام أناس لأنهم لم يفكروا فى شىء مما أقول ! فعلى الإنسان أن ينتقى شيئا لرأسه ، وشيئا لعقله وقلبه ، وأن يتمدد وينام .. ويصحو أصح لينام أهدأ ، ومن نومه الهادئ وصحوه الناعم ، تكون حياته اللينة .

وأقول لنفسى :

ـ إذن لا توجد هناك هموم فكرية ؟

ـ مثل ماذا ؟

ـ أين الله ؟

ـ لا أحد يعرف .

- لا أحد ؟

- نعم لا أحد .

- وما هو الله ؟ وما حكمة هذه الحياة ؟ التافهة وما معنى وجودنا الأكثر تفاهة ..

- أما أن حياتنا تافهة . فهذا صحيح . فلا أحد يعرف معنى هذه الحياة وماحكمتها . ونحن لانعرف الله . لأن الله أكبر من أن يعرفه الإنسان . فالعقل صغير . والعمر قصير . والعلم لا حدود له .. فنحن بعقولنا الصغيرة ، وبوسائلنا المتواضعة ، نريد أن نعرف الحقيقة المطلقة الواسعة الشاسعة ، التي لا أول لها ولا آخر .. كيف ؟ إنني دائما أقول : كما أن الإنسان لا يستطيع أن يقبس السماء بالشبر ، فإن العقل الذي في حجم الشبر : لا يستطيع أن يحيط بالله ليعرفه ويفهمه .. لاعندنا عقل ، ولا عندنا علم : ولا عندنا عمر . ولكن البشرية في ملايين السنين من عمرها سوف تعرف شيئا ما .. فنحن لسنا إلا لحظات في عمر العقل أو محاولة الفهم عبر ملايين الملايين من الناس ، والملايين الملايين من السنين . وفي كل الحالات سوف تصدق علينا الآية الكريمة التي تقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

- بالأمس واليوم وغدا وبعد غد بملايين الملايين من السنين .

مثلا : ما الذي تستطيع أن تقوله لطفل صغير عن نظرية النسبية .. ما الذي تستطيع أن تقوله لرضيع عن أشعة ليزر .. كيف تقولها وكيف تقنعه .. أنت لاتستطيع وهو عاجز عن الفهم .. ونحن في طفولة العقل الإنساني ..

وعندما كنت أدرس الفلسفة في الجامعة كنت أغبط تلامذتي وأحسدهم : إنهم يصدقون ما أقول .. أي يصدقون مالا أعرف أنا كيف أصدقه . استراحوا إلى

ولم أسترح إليهم . فهم أحسن حالا .. إنني مثل شجرة تلسعها الشمس ، وفي ظل هذه الشجرة ينام ويلعب أطفال صغار !

وكتبت وصية فقد قررت أن أنتحر مرة أخرى . واستأذنت زوجتي في شيء واحد : أن تسمح لي أن أموت تحت كتبي . وأن تكرمني بإحراقها معي .. فهذه الكتب لم تنفعني . وعندما أحترق أنا وكتبي أكون أنا الحريق والمحترق .. تكون كتبي هي الوقود ويكون شحمي هو الزيت .. وأصبح كما قال الشاعر كامل الشناوي :

حطمتني مثلما حطمتها

فأنا منها وهي مني : شظايا !

وكتبت قصة طويلة اسمها « عريس فاطمة » والقصة ليست مريحة . وإنما هي أنا . وإذا كان الأديب الفرنسي يقول عن « مدام بوفاري » بطلة قصته : إن مدام بوفاري هي أنا — فأنا أستطيع أن أقول عن فاطمة إنها أنا أيضا .. أو فاطمة التي لاتجد لها عريسا ، أو أنا العريس المجهول الذي انسدت الطرق في وجهي لكي أصل إلى فاطمة هذه . ولكن من الذي سد الطرق ؟ أنا . من الذي جعل حياة فاطمة وبيت فاطمة جهنم ، لا حياة فيها ؟ أنا أيضا . إنها حيرتي . إنها دوختي .. أنا الذي ابتدعتها . وأنا الذي خلقت مشاكلها : ومن بين مشاكلها جمالها وشبابها ورقتها ، وخشونة الحياة حولها ، وصعوبة الأب والأم والإخوة والمجتمع كله . فما الحل ؟ لم أجد حلا . وتوقفت بالقصة ، أو توقفت بي القصة قبل النهاية . وظلت دون تكملة أربع سنوات ، وتذكرت أن قصتي مثل « بيت الأحلام » في مدينة رابالو على الريفييرا الإيطالية ..

فالبيت لم يكمله الذي بناه . وقال الناس إنه كالأحلام جميلة ، ولكنها ناقصة

إلى أن تتحقق . فما الحل ؟ بعد أربع سنوات وجدت الحل ، جاءت البطلة فى نهاية القصة تحاكمنى . وتسألنى : أنت الذى جعلت كل شىء صعبا . بل مستحيلا . ولذلك لم تفلح فى أن تخرجنى . إن المؤلفين عادة يخلقون الحل ، قبل أن يعقدوا المشكلة ، وينشئون الطرق والكبارى . قبل أن يفكروا فى طريقة الهرب .. ولكنك لم تفكر فى شىء من ذلك .. هل أنت هكذا ..

وقلت : نعم هكذا .

– وما مشكلتك .

– كثيرة جدا مشاكلى ..

– وإذا كنت غير قادر على أن تحل مشاكلك فكيف تحاول أن تحل مشاكل الآخرين .. إنك مثل الرجل الذى تحدث عنه الفيلسوف سقراط الذى حاول أن يعد حبات القمح فى جيبه الأيمن ، فلم يستطع . واهتدى إلى حل لكى يعدها ، فملأ جيبه الآخر بالقمح أيضا ، ليحسب ما فى الجيبين معا . أنت أيضا عاجز عن حل مشاكلك .. فخلقت مشاكلى لتحل المشاكل معا . ولكنك لاتستطيع ..

وانتهت القصة بمحاكمة البطلة ، وحلها لمشاكلى . وبقيت مشاكلها هى بلا حل !

ولعلك تلاحظ أنى أمشى فى عدة طرق فى الماضى والحاضر .. لأن العقل الإنسانى كذلك : قديمه واضح ، وحديثه غامض ، ومستقبله لامع .. والعقل يحاول أن يفهم كل ماهو واضح عنده .. فقط كل مايسقط عليه النور .. وهذا يذكرنى بنكتة ألمانية فلسفية : أن رجلا ظهر على المسرح وراح يبحث عن مفتاح ضاع منه ليلا . فاقترب منه رجل الشرطة ليسأله : ماذا ضاع منك ؟ قال : مفتاح ..

سأله الشرطى : وأين ضاع منك ؟ فقال الرجل : فى أول الشارع ؟ قال الشرطى : فى أول الشارع وتبحث عنه هنا فى آخر الشارع ؟ فأجاب الرجل : نعم .. لأن هذه هى المنطقة الوحيدة التى بها نور !

وأحسست أنى مواطن عالمى .. أو على الأصح إنسان ليس له وطن . وتمنيت أن أكون لاجئا دينيا – إلى أى دين . أن أتوطن .. أن أطلب الجنسية من أى معبد . أن أجد الراحة من أى موقع .. فأنا لم أختر دينى ، ولا أحد اختار دينه ، وإنما وجدتنى على دينى ، ولن أستطيع ، لا اليوم ولا غدا ، أن أدرس كل الأديان لأختار واحدا منها وقليلون فى الدنيا هم الذين تحولوا عن دينهم إلى ديانات أخرى ، أكثرهم جواسيس على الأديان .. وأقلهم طيبون ؟

ولكن كيف أقطع دينى من نفسى ، أو كيف أنفى نفسى عن دينى .. كيف أقتطع من نفسى ما هو جوهر نفسى ؟ لا أعرف كيف . ولكنى أتصور ما يحدث للثعالب فى المناطق الجليدية عندما تقع فى المصيدة ، فإنها تمسك بأسنانها إحدى أرجلها ، ولا تزال تقطعها وتبكى حتى تهرب بثلاث أرجل بعد أن تركت واحدة هناك – منتهى الألم والحرص على الحياة والتضحية من أجل الاستمرار .

ولا تزال الحياة أقوى من الألم .. ولكن المشكلة أن الذى أريد أن أقطعه بأنيابى العقلية والوجدانية . ليس يدا ولا رجلا ، بل أكبر من ذلك وأخطر من ذلك !

ولا أجد كلمة واحدة تعبر عن تعبى .. لا أعرف إن كان الذى أحسته اسمه : التعب .. أو الإرهاق .. أو الانهدام .. الضياع .. الشتات .. التبدد .. التفكك أو التلاشى .. لا أجد الكلمة المناسبة ..

وصرفت نفسى عن الفلسفة ، وارتميت على علوم الحياة والنبات والفلك ..

وعلى دراسات الجنس والسلوك الإنسانى .. ودراسة ما وراء الحياة الإنسانية ، وأشكال أخرى من الحياة الروحية ـ هربا مما أنا فيه ..

ولا أقول إننى اهتديت إلى شىء ، فأنا يائس من الاهتداء إلى شىء . وأصبحت أبحث عن نفسى فى الناس والكتب ، فلم أكن أستريح إلا لأناس مثلى ، فكأننى أهرب من نفسى إلى عشرات الصور من نفسى .. وبذلك لا أخرج عن نفسى .. وإنما أجلس إلى نفسى ، وأمل ما أقول وما أسمع ..

وفى العشر السنوات الأخيرة حاولت كل هذا واسترحت إليه . استرحت إلى الهرب إلى شىء ممتع لى وللقارئ . وأدركت أننى أقوم بشىء للآخرين . ولكن لا أحقق شيئا لنفسى . لانعمت ولا استرحت ولا اخترت . ولا بددت ظلاما ولا أوهاما ..

ودارت بينى وبين كثيرين مناقشات . ومللت أسلحتى فى النقاش ومن التلاعب بالأفكار ، ووجدتنى أتحول من أحد حيوانات السيرك ، إلى حيوان يمشى على الأرض .. تحولت من حمامة تطير ، إلى دجاجة على الأرض .. واكتشفت أن بيتى مصنوع من أوراق الكوتشينة : أرقام وصور .. ولكنه ليس بيتا يريح ، يصلح لأن يحمينى ويقينى ويضفى الأمان على نفسى ، وعلى أيامى ..

وكانت زوجتى أبسط إيمانا وأعمق إحساسا بكل الحقائق المعقدة التى عجزت عن الإيمان بها . وكان القليل من المعرفة الدينية يريحها .. فهى اختارت الإيمان ، لأنها اختارت الدين .. أو اختارت الدين وأكملته بالإيمان به .. هل هذا ممكن ؟ ممكن جدا عند كثيرين ! هل هذا يريح ؟ نعم عند كثيرين . فماذا أفدت لاشىء ؟ ماذا أرحت ؟ لانفسى ولا أحدا ..

ولا أعرف حقيقة من أين أتاها هذا الصفاء الروحى والشفافية الدينية ؟ إنها تعتمد على وجدانها . على ماتحسه مباشرة . على صلتها بالله ، ووجوده الدائم معها ولها . كيف ؟ لا أعرف . ولكنها مؤمنة بذلك ، مستريحة إلى ذلك . وطالت مناقشاتى وحيرتى ..

وفجأة ، كان كل مافى نفسى وعقلى قد تعب . أو قد أضىء فجأة .. ورأيت مالم أر . وسمعت مالم أسمع .. شىء رطب مضىء مريح منعش فى داخلى . انفتح شىء .. أطل شىء .. امتلأت بشىء .. تسرب من داخلى شىء . لا أعرف ما هذا الشىء ولا أعرف كيف أسميه .. ولكنه هناك .. أو هنا .. وعدت أقرأ القرآن ، وكثيرا ماقرأت . وعدت أقرأ الحديث .. وسرا ، وكأننى أتستر على جريمة ، قرأت كتاب « عبقرية محمد » للعقاد و « محمد » للدكتور حسين هيكل و « محمد » لتوفيق الحكيم و « على هامش السيرة » لطه حسين .. و « سيرة ابن هشام » وما كتبه المستشرقون .. ولا أقول إن هذه القراءة كانت عملا واعيا وإنما وجدت نفسى مأخوذا مسحوبا منجذبا أو مجذوبا .. وفهمت مالم أكن أفهم .. وعرفت مالم أكن أعرف .. واكتشفت أننى أجهل الكثير جدا .. واهتديت إلى الإسلام أبسط الأديان وأكثرها تجريدا وأعمقها فهما للإنسان والعلاقات الإنسانية ، وأن تشريعه شامل .. وأن كل شىء فيه لم يقع له تحريف . كل شىء باق منذ ١٤ قرنا .. ولم أشأ أن أقول هذا لأحد ، ولكن ماذا لو قلت ؟ لم أجد إجابة عن هذا السؤال ، هل إذا وجدت إجابة عن السؤال هل أكتب ذلك ؟ نعم وما الذى يمنعنى .. إننى كتبت عشرات السنين ومشى ورائى مئات الألوف من الشبان واتجهت بهم إلى كل وجهة إلا الدين .. فلم يكن الدين همى .. فقد كنت مشغولا بكل الأديان .. أو بالأخلاقيات الإنسانية العامة فى كل العصور .. ومن العدل إذا فهمت أن أقول . وإذا اهتديت أن أهدى .. وإذا آمنت أن أدعو

للإيمان ، كما دعوت إلى أشياء أخرى كثيرة . وفى حرارة الشباب ومنطق الرجولة وتخصص الفيلسوف ..

وجاءت فكرة أداء العمرة . ومن غير تفكير وافقت . وبعد أن وافقت رحت أفكر ، كيف أفعل ذلك ؟ ثم ماذا بعد ؟ وماذا يقال ؟ ومن الذى يقول ؟ وماذا يخيفنى أو يحرجنى فى ذلك ؟

نعم هناك مايحرجنى . فأنا لست من رجال الدين ، ولا كان من الممكن أن أكون ذلك ... وبالدراسة لست من رجال الدين ولن أستطيع لأن الذى أعلمه قليل ، والذى أفهمه أقل من القليل . وعمرى لا يتسع لشىء كثير من الدراسة الدينية المتأنية .. أما الذى يحرجنى فهو أن أخرج عن الصف الذى سرت فيه . وأن أقفز من برواز الصورة التى وضعت نفسى فيه .. وهذه الصورة من صنعى .. وعرفنى الناس بها .. وإذا ظللت حريصا على أن أبدو مطابقا لصورتى . فأنا إذن تحجرت على وضع . تجمدت على صورة . وأصبحت صورتى أقوى منى – هى الصنم وأنا عاشقها . صنعتها وعبدتها . أنست وثنيا .. أعبد نفسى .. من المؤكد أننى لست كذلك .. ولكن فقط هى الأصل وأنا الصورة .. أو هى الصورة وأنا « العفريتة » ..

ولكن ماذا لو حصل ماذا أخاف أن يحصل ؟ لا أدرى .

وكان لابد أن أضع فوطتين واحدة فوق والثانية تحت وفوقها حزام من الجلد . وكان امتحانا عسيرا . واجهت الناس فى البيت .. وتفاديت أن أنظر إلى عيونهم . فأنا أكثر دهشة منهم . وخفت من البرد .. فأنا شبه عريان واضع رجلى فى – شبشب من الجلد اسمه زنوبة – يلبسها الفقراء فى مصر ، ويلبسها كل الناس إذا

ذهبوا إلى الأرض المقدسة .. يطوفون بغيرها حول الكعبة ، ويسعون بها بين الصفا والمروة سبعة أشواط .

وتأخرت الطائرة عشر ساعات وعدت إلى البيت . وكان رمضان ، وتحيرت هل أخلع ملابسى . أنا أعرف أن هذا حرام . هل أستطيع أن أضع روبا فوق ملابس الإحرام . لا أعرف . سألت الصديق عثمان العبد ، فقال ما أعرفه . وحاولت أن أجد الشيخ الباقورى فقيل لى إنه يتناول إفطاره خارج البيت . وسألت عن الصديق أحمد فراج ، وكان يفطر فى غير بيته ، ولكن هذا العام رأيت الشيخ أحمد طنطاوى فى التليفزيون السعودى يقول : ممكن أن تضع الروب فالدين يسر !

وسألت الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف ، فسألنى : من أنت ؟ قلت : مواطن من مصر ، فأجاب : ممكن جدا أن تضع البالطو أيضا إذا كانت هناك ضرورة لذلك

وعدت إلى المطار . ولاحظت أننى أحاول أن ألم ملابسى ، ولم يكن لذلك أى داع – إنما أنا أريد أن أصرف العيون عنى . أو أحاول أن أقول للناس إننى غير راض عن الذى أعمله ، أو أننى مرغم صحيا على ذلك .. ووجدتنى أغطى رأسى وأسحب الفوطة حتى عينى . وكان سلوكى هذا نوعا من التخفى . نوعا من إنقاذ صورتى التى عرفنى بها الناس – وكلها محاولات صغيرة تؤكد أننى أفلفص وأننى أقل إيمانا .

وفى الطائرة ومع الناس ومع أصوات الملبين أحسست أننى فى مسجد فى السماء . وأن أصوات الناس وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك لبيك ..

شيء من دفء ثم حرارة ثم كهربة . ثم ارتعاشة ثم زلزلة ، ولم أشعر بصوت الحركات ولا بالوقت . وفجأة نزلت الطائرة فى مطار جدة عند الفجر .. ولم أسأل نفسى ولماذا هذا اللبس بالذات ، أو لماذا عدم اللبس . ووجدت أنه سؤال لامعنى له .. نحن لا نسأل أنفسنا لماذا نرتدى البيجاما فى البيت ، والبنطلون خارج البيت والكرافتة فى الرسميات والمايوه فى الصيف ، ونتعرى أمام الطبيب دون مناقشة .. فهذه الملابس لها معان كثيرة .. فنحن نتجرد من كل شيء .. لنكن أمام الله عراة .. مجردين من الملابس ومن الشهوات ومن المخاوف أيضا .. وأن نتساوى جميعا ، من يجد الثوب ومن لايجده .. وفى ذلك طاعة وامتثال .

وفى سيارة انتقلت إلى مكة وفيها أول بيت وضع للناس : الكعبة . والكعبة مركز الإسلام . والحجر الأسود أقيمت عليه الكعبة . والمسجد الحرام أسواره عالية .. كأنه يفصل دينا عن دين . وبشرا عن ملائكة .. وكأنه حائط صحى ، أو حجر صحى .. فالداخل مريض والخارج سليم .. الداخل ثقيل الذنوب ، والخارج بلا ذنوب ، فالله غفور رحيم .. غفور للخطايا ، وهو لذلك رحيم بنا ـ المعنى أمل وراحة ومثوبة على هذه الرحلة لم نتعب فيها لاذهابا ولا إيابا .. وإنما فقط تعب الناس فى الوقوف والانتظار . أى تعب الناس من الناس .. وتعبت أيضا فى محاولاتى التنكرية حتى لا أكون كما عرفنى الناس ، ولم أعد يهمنى ذلك . بعد ذلك .. فهذه صورتى . والذى يتغير هو البرواز فقط .. وكما ينبت النرجس من البصل ، وكما تنبت الفاكهة من الطين ، خرجت صورة أخرى لشخص آخر . خرجت صورة أخرى لنفس الشخص .. وكما تحدث المعجزات المسيحية فتسيل لوحات القديسين زيتا أو دما ، كذلك بدأت تنبض صورتى بالحياة ، بالحياة الأخرى ! .. ولماذا لا ؟

وتقدم منا طفل صغير . وقال : هل أطوف بكم وأسعى ؟ قلت . نعم ..

إنه طفل ولكنه يعرف ماسوف يقول : إننا نصلى وهو يعمل . وكان الطفل يطوف بنا ويرفع صوته بأدعية مكسرة الحروف ومليئة بالأخطاء النحوية . إنه صغير . ولم أحاول أن أصحح مايقوله الطفل وأنا أردد وراءه .. فالقواعد النحوية لاتهم الآن .. القواعد النحوية مثل البروتوكولات ومثل أصول الجلوس والوقوف والأكل والشراب والتحية والبروتوكولات لاتهم . وأعطيت عقلى أجازه .. وأطلقت سراح قواعد النحو والصرف .. ورحت أردد وراءه مايقوله .. وفى الشوط السابع حول الكعبة كان يقول : اللهم إنى أسالك إيمانا كاملا ، ويقينا صادقا ، ورزقا واسعا ، وقلبا خاشعا ، ولسانا ذاكرا ، وحلالا طيبا ، وتوبة نصوحا ، توبة قبل الموت ، وراحة بعد الموت .. رب زدنى علما ، وألحقنى بالصالحين » .

وعندما نزلنا إلى بئر زمزم .. نسينا وشربنا قبل أذان الإفطار . ولكن ولاذنب لنا ، فقد كان ذلك سهوا .

وكان الطفل ونحن وراءه نقول : اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء وسقم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

واتجهت مع الناس إلى حيث السعى بين الصفا والمروة ، كما كانت تفعل هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام بحثا عن الماء .. ويبدأ السعى عادة بهذه الآية الكريمة :

« إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » .

وخرجنا من المسجد الحرام إلى الشارع .. إلى الدنيا .. انتهى كل شيء .. انتهى ماجئنا من أجله .. وما بعد ذلك راحة ومتعة ، وقبل أن نبحث عن

فندق .. خلعنا ملابسنا فى الشارع ، وارتدينا الجلباب . أما النوم فلا مكان لأحد ، وأخيرا عثرنا على بيت لم يتم بناؤه . واشترى صاحب البيت أو مديره مراتب من الكاوتش .. ونمنا على الأرض .. واستأذنا فى الليل إن كان يضايقنا أن ينام آخرون أمام الغرف . وأن ينام رجل طاعن فى السن ، فى التواليت وفى البانيو بالذات . ولم يعترض أحد على نوم الرجل الشيخ ، وإنما أشفقنا عليه ..

ووقفت مع عثمان العبد أمام هذا البيت ، الذى أصبح فندقا الآن ، نناقش فى الطريقة التى نذهب بها إلى البنك ـ ولم نجد معنا فكة . فمر علينا رجل وأعطانا كل واحد ريالا . وشكرنا له هذه المروءة .. وبعد لحظات اكتشفت أن هذا الرجل شحاذ ..

وخجلت من ذلك ، وحاولنا أن نعطيه مما معنا ، ولكن لا توجد فكة .. ولكن لابد أن حالتنا قد هزت قلب الشحاذ ، فأعطانا هذه الحسنة .. ولم يظهر فى اليوم التالى . فتصدقنا بريالات على شحاذين آخرين !

وضبطت نفسى أفكر فى هذا الذى فعلت ، ولكن ما الذى فعلت ؟ لاشىء يستحق الاهتمام ، مالم يكن هناك إيمان به وراحة قبله وبعده .. وراحة هادئة دافئة سخية .. وأظن أن هذا ما أحسست به ، كأننى كنت أمشى بين الناس باسم مستعار . والآن أصبح الناس يعرفون اسمى .. كأننى كنت أتوارى وراء لوحة زائفة .. بعيدة عن طبيعتى ، ولكنها قريبة من قلبى .. والآن أنا الصورة ويداى هما البرواز .. وإيمانى هو المسمار الذى يمسك الصورة ويثبتها على جدران السماء وأيقنت أنى ارتويت ، لأننى شربت من بئرى ، لا من أنهار الآخرين .. وأننى فتحت قلبى ، أوسع مما فتحت فمى ..

فليست المعرفة فقط هى التى تولد الإيمان ولكن الإيمان أيضاً يولد المعرفة ، فالإيمان مثل « أملاح الهيبو » التى توضع فيها الصور عند التحميض .. إن هذه الأملاح هى التى تبرز الصورة ثم تثبت ملامحها .. ومثل الصمغ الذى يمسك الأشياء .. ومثل السوائل التى تثبت الخيوط فى اللوحات .. وتثبت شكل الشعر .. وتثبت ألوان السيارة والطائرة ..

وآدم وحواء طردا من الجنة لأنهما عرفا أنهما قد ارتكبا خطيئة .. وتغطيا بورق التوت لأنهما عرفا أنهما عاريان .. ولكن لولا هذه المعرفة البسيطة والرغبة فيها ، ما كانت هذه البشرية على الأرض ، والمعرفة مؤلمة ، ولكنها ضرورة مؤلمة وحيوية ..

وفى قبائل الأشانتى بأفريقيا يقولون إن الله خلق آدم وحواء فى الجنة ، وخلق اثنين آخرين هما آدم وحواء على الأرض ، ونزل آدم وحواء من السماء إلى بلاد الأشانتى . وعاش هؤلاء الأربعة دون أن يعرفوا كيف يتناسلون . ويقال إن حية مخيفة ولكنها ليست سامة . جاءت فى أذن السيدتين وقالت لهما : لماذا لايكون لكما أبناء .

ولم تكن السيدتان تعرفان ذلك . وجاءت الحية وطلبت إليهما أن يتواجها : رجل وامرأة وأن يتقاربا .. وسوف تجىء الأولاد بعد ذلك ..

وجاءت الأولاد . وضاقت الأمهات والآباء بالأولاد . وراحوا يلعنون الحية التى دلتهم على العذاب عن طريق اللذة .. أو على اللذة التى تؤدى إلى العذاب .. وملايين العذاب ..

ومن أعياد الأشانتى أن الرجال يقدسون الحية ، والنساء يلعنها .. ولا أظن أن هذا معقول ، فمن قال إن الرجال بلا عذاب ، وإن النساء بلا لذة ..

وآخر تطور لديانة الأشانتى أن أصبحت الحية حيوانا مقدسا .. أى اتفق الرجال والنساء على حيوان هام فهى أم المعرفة ، وأم الحياة كلها .. وأنها هى المعرفة وأنها هى الإيمان بها ..

وأن المعرفة لاتستحق اللعنة ، إلا أنها ضوء إلى الإيمان ، وأن الإيمان لايستحق اللعنة لأنه راحة فى الضوء وفى الطريق إلى أن نعرف أنفسنا وغيرنا ، فنعرف الله والكون ـ على قدر ما نستطيع !

ثم كان الطريق الطويل جدا إلى المدينة قصيرا .. هكذا كان إحساسنا .. وجاء المغرب ونزلنا نتوضأ من ماء المطر .. واتجهت إلى مكة . وصلينا . وبسهولة تم كل شىء . بلا تفكر .. واسترحت إلى أن شيئا يتم دون أن أقوم باستفتاء مباشر فى داخلى . فيقول العقل : لا .. ويقول القلب : نعم ..

وتتردد أصوات ضاحكة ساخرة . ومحاولات أخرى لإسكات كل الأصوات .. ولكن تم ذلك بلا صوت ولا حركة ولا حرج .. وانتهزت فرصة لأترحم على والدى ، كما ربيانى وتعذبا وتعذبت صغيرا ..

وفى المدينة أحسست بشىء أقوى مما أحسست به فى الكعبة .. ففى مسجد الرسول قد دفن الرسول وأبو بكر وعمر .. هؤلاء أعرفهم وأنحنى للعظمة والعبقرية والإيمان والتضحية والبساطة .. هنا شخص غير معالم الدنيا . هنا شخص كفر به أهله . وتبعه غيرهم .. ثم تبعوه . شخص لم يتعلم القراءة والكتابة . ولكن الذى يقوله فلسفة . وحكمة . وفهم للنفس والعلاقات الاجتماعية والسياسة والحكم والحرب ودعوة إلى ما هو أفضل . من أين تعلم ذلك كله .. هذا الراعى للغنم الأمى .. ما هذه الأحاديث . ما هذه الأحكام ؟

ما هذه التفسيرات . ثم ما هذا القرآن ، كلام ليس له مثيل ولانظير . ولا من

عنده . إنه يتعلمه أولا بأول .. ككل الناس . لادخل له فيما يوحى به إليه ـ إنه شخصية عظيمة . تعذب ومرض ومات . وتعذب أكثر من الناس ، ومرض ككل الناس ، ومات لأنه مادام قد ولد ، فلابد أن يموت . إنه إنسان من رجل وامرأة ، وكانت صدمة المسلمين بركانية عندما مات .. لقد نسوا أنه سوف يموت .. بل إن أبا بكر بكى عندما سمعه يتلو الآية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » أدرك أبو بكر أن كل شىء قد تم وأن صاحب الرسالة قد بلغها ، وليس بعد ذلك إلا الموت . ولم يخطر على باله أنه سيموت .

تغير الكثير فى داخلى .

وأعتقد أننى كنت مثل سفن الفضاء التى تعرضت بطاريتها لأشعة الشمس . فامتلأت . لقد امتلأت . بكل ماهو مريح . ومضىء . وأننى أغتسلت من أشياء كثيرة ، وأن رواسبى قد أزيلت ، وأن هوائى الملوث قد نقى تماما .. وأن دمى قد نقل خارجى ، وأن دماً جديدا يجرى فى عروقى .. كأننى ولدت .. أو تولدت من شىء آخر .. أو من كائن آخر .. وإننى عدت طفلا فى كعبة المعرفة الإنسانية . وجنينا فى بطن الدين .. وإننى فى حاجة إلى « حبل سرى » أتغذى منه ..

ولا أعرف كم تطول هذه الطفولة . كأننى آمنت بتناسخ الأرواح .. وكأن روحا أخرى قد حلت ببدنى .. وشيئا غريبا آخر عرفته : كأن الأجسام لاتتعب . ولكن الأرواح هى التى تتعب فإذا تعبت أرهقت الأجسام . كأن السائق الذى يسوق حياتى ، كان مخمورا مسطولا قلقا ، وجاء سائق جديد ، يداه أكثر استقرارا ، وقدماه أكثر اتزانا ، والطريق أمامه أوضح ، والهدف أقرب ..

كأننى لست أنا ..

ولا أعرف كيف أعبر عما أعرف ، وعما سوف أعرف ، لا أعتقد أنى قادر على ذلك . فأنا حديث العهد بكل المعانى الدينية ، وحديث المعرفة بنفسى الرضية .

وتذكرت الفنان الكبير جوجان عندما كتب فى « يومياته الشخصية » عندما هرب إلى جنات المحيط الهادى .. كتب يقول : «أريد أن أحب ولكنى لا أستطيع .. أريد ألا أحب ، ولكنى لا أستطيع ! ولكن من المؤكد أننى سوف أستطيع .. أن أحب !» .

صفاء عقل وانشراح صدر ووضوح رؤية !

من هو الله ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ومنذ متى ؟

وليس أسهل من أن أفتح أى قاموس فلسفى أو دينى وأنقل عشرات ومئات وألوف العبارات التى بقيت لنا من كل العصور للإجابة عن مثل هذا السؤال .. فكل الأسئلة سهلة .. ولكن الصعوبة فى الإجابة .. وأصعب من أية إجابة أن تكون مقنعا لمن يسألك ..

وقد تطور معنى الله وصورته عند الناس ، من أيام الحياة البدائية ، إلى الحياة العصرية ، كل عصر يختار المعنى أو الصورة التى تريحه أو التى يستريح إليها .. ومن المؤكد أن الإنسان يختار الله على صورته هو ..

مثلا ـ وأعود إلى دوائر المعارف الفلسفية والدينية ـ يقال : إله الزنوج لابد أن تكون له شفاه غليظة ، وشعر مجعد وخدود أبنوسية ، وإله الإغريق كان مثلهم أشقر الوجه ، أصفر الشعر ، أزرق العينين !

والشاعر جيته يقول : كما يكون الإنسان يكون ربه !
الله يدخل إلى الإنسان من باب سرى !
الطريق إلى الله يبدأ من هنا : من القلب !
الله آهة فى ضمير الإنسان لم يفصح عنها بعد !

الإنسان عنصر حى . والله هو الحياة !

هناك دليل أكيد على وجود الله : هذا الخير وقوانين السلوك الأخلاق والاجتماعى التى تراءت لرجاله الطيبين من الأنبياء والأولياء والقديسين !

ـ قالها تولستوى !
لو عرفت الله ، لعرفت أنه قادر على كل شىء !
يقول سرفانتس : عندما يشرق الله ، فإنه يشرق للجميع !
إله المتوحشين متوحش ، إله التجار تاجر . إله الصليبيين صليبى !
حيثما يكون سلام ، يكون الله !
لم يخسر شيئا من لم يخسر الله !
كل إنسان لنفسه : والله للجميع !
كل شىء لا يتجه إلى الله ، ضاع !

ويقول القرآن الكريم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

« قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء » .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء : فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى » .

« ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

وقال لموسى عليه السلام « لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل ، جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال : ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك ، وكن من الشاكرين » .

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

وآيات أخرى كثيرة فى القرآن الكريم . أوضح وأعمق من كل ما قيل فى وصف الله ووحدانيته وقدرته المطلقة على كل شىء .

أنت على نحو ما صورة مصغرة من الله !
فى وجوه الرجال والنساء والأطفال ، أرى الله !
يقول باسكال : الوجود الأبدى ، يجب أن يكون أبديا . وإلا لامعنى له !
إذا كان الله معنا ، فلأننا معه ، وإذا كان معنا ، فلا أحد ضدنا !
يقول شو : احترس من كل إنسان اتخذ له إلهاً فى السماء !
من يكون خادما لله ، فقد اختار له سيدا عظيما جدا !
الله يحب الأفعال ، ولا يحب الأقوال !
أنت تفكر والله يدبر !
أنت تستطيع والله يريد !
قال فولتير : إذا لم يوجد إله ، فمن الضرورى للإنسان أن يخلق لنفسه إلها !

ساعة وجدناها على الشاطئ . الساعة تدور . لابد أن أحدا صنعها . هذا الأحد فى مكان ما فى زمان ما !

ليست الساعة ولكن الزهرة . إن الساعة نظام ولكن الزهرة نظام حى . وهذه أعقد وأصعب وأروع من ساعة وجدناها على الأرض .

الله تستطيع أن تتخيله ، لا أن تراه ، وأن تحسه لا أن تصفه ـ عبارة مشهورة للقديس أوغسطين !

من يخاف الله : يخافه الناس !
إذا لم تلتق بالله فى أى مكان ، فلأنه لامكان لك !

وليس فى قدرة الإنسان العقلية أن يعرف الله . ولا أن يفهم قدراته . ولكى يفهم الإنسان لابد أن يحيط بالشىء . أى يكون هو أكبر من الشىء الذى يريد فهمه . وأن يقلبه فى يديه أمام عينيه . ويحدد أبعاده ووزنه . وأن يصبح قادرا على أن يملأ به نفسه .. وأن يبعده عن نفسه بعض الوقت ليتأمله .. وهذا غير ممكن للإنسان فى أى عصر وفى أى شىء ـ ومن أى ثقافة أو فلسفة .

مثلا : ما الذى تراه فى الشارع الذى تمشى فيه كل يوم : أنت تنظر إلى الأرض معظم الوقت ، حتى لاتصطدم برصيف أو بالوعة أو طوبة أو بالناس أو السيارات ـ فلا ترى ما فوق رأسك ، ولا ماتحت قدميك ، ولا قدميك .. فإذا كانت لك سيارة فما الذى تراه من نافذة السيارة .. إنك ترى كل ما هو فى مستوى رأسك وفى مجال بصرك . فإذا ركبت طائرة فما الذى تراه من مدينتك . من بلدك . من الأرض .. وأنت فوق السحاب .. وما الذى يراه الطيار نفسه ؟ ـ وإذا ركب الطيار إحدى سفن الفضاء .. فما الذى يراه من الأرض .. وإذا هبط على القمر فما الذى يراه على القمر . وما الذى يراه فى الكواكب الأخرى .. أقصى ما وصل إليه الإنسان أنه مشى بضعه كيلو مترات وجمع بعض الأحجار وعاد إلى الأرض فى حفظ وصيانة عشرات الألوف من الرجال والأجهزة الالكترونية تحسب عليه أنفاسه وجوعه وعطشه وعرقه ودقات قلبه وزراير بنطلونه . فما الذى رآه .. إن الشاب العبيط جاجارين ، أول رائد فضاء ، عندما ارتفع فى الكوكب الصناعى قال : ولكنى لم أجد الله !

هذه عبارة ساذجة تدل على أنه إنسان بسيط سائق مركبة فضائية فقط . مشدود إلى عشرات الأربطة ، منظور من عشرات العدسات . ويرى الفضاء الهائل أزرق أو أسود ، ويرى الأرض كرة حمراء ملفوفة بسحب بيضاء .. ولم يجد الله ، كأن الله كوكب يظهر لمن يرتفع عن الأرض مائتى كيلو متر .. وماهذه الكيلو مترات فى هذا الفضاء الذى يقاس بملايين الملايين من السنين الضوئية (السنة الضوئية الواحدة ١٨٦ ألف ميل × ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوما = ... احسبها أنت ثم اضربها فى ملايين الملايين)

ما الذى نراه فى عالمنا المحدود .. إننا نرى جزءاً تافها من كل شىء .. وعندما استخدم الإنسان العدسات المقربة ، اتسع حوله الكون . فالعدسات ليست إلا بديلا متطورا للعين المجردة .. وبعد ملايين السنين سوف تتطور أدوات الرؤية والحساب ، ويتطور العالم من حولنا ويتسع وتدرك ضآلة الإنسان وما يعرفه الإنسان .. وما يستطيعه الإنسان .. ويصعب عليه مرة أخرى أن يعرف من هو الله .

فالإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى الشمس بالعين المجردة . وإنما ينظر إلى قرصها فى الماء ، أو من خلال منظار أسود .. والإنسان لا يستطيع أن يرى الله ، وكيف ؟ وعندما سأل موسى ربه قال له الله : لاتستطيع . وما أشار الله إلى الجبل .. أو

لمسه . أو أشع عليه .. تحطم الجبل . فكيف لو حدث ذلك لموسى نفسه .
فالإنسان هو هذا الموسى الذى يريد أن يرى لكى يصدق ، ولابد أن يصدق ،
فإذا حدث .. حدث مالم يطقه موسى ..

ولو نظرنا إلى ما تحت الميكروسكوب إلى خلية حية .. لوجدناها ثورة حياة منظمة . والعين المجردة لاترى الخلية . ولكن الميكروسكوب يستطيع . وسوف تتطور هذه العدسات المكبرة فتصبح الخلية متحركة حية مثل ملعب كرة القدم ولكن فى نظام محكم .. إن النجوم فى السماء ليست قطعا من الأحجار متوازنة الحركة والدوران حول نفسها أو حول غيرها .. ولكن الخلية الضئيلة الحية هى شىء يبعث على الرهبة ، وعلى الانحناء لأنها مخلوقات الله ــ إذا صح أن نقول إن الله خلق شيئا تافها !

والإنسان حيوان متدين ..

أى لابد أن يجد تفسيرا لما يراه وما يفكر فيه .. وما يخاف منه ، وما يطمئن إليه . ولذلك فكل إنسان له دين . الذى يؤمن والذى يكفر . دين سماوى أو أرضى أو سياسى أو اقتصادى . وفى كل دين أناس لهم عظيم الاحترام أو القداسة .. ولهم أقوال . وهذه الأقوال هى علامات نور فى طريق الحياة المظلم بشهوات الإنسان وأحقاد الناس ومخاوف الحاكم والمحكوم . إن الحياة طوفان وكل طوفان يكون له نوح . وتكون لنوح سفينة . ومهما كان نوح نبيا ، فإنه سيجد فى أقرب الناس له من يعصاه ــ نوح عليه السلام كان له ولد عصاه وغرق ..

وكل الأديان تدعو إلى الصلاة . وتدعو إلى الصوم . والزهد فى الحياة والسلام بين الناس . وكل الأديان تدعو إلى الحج إلى الأماكن المقدسة . ولكن

الإسلام ليست فيه وثنية . لاصنم ولا أحد مقدسا ، إلا الله .. والإسلام أكثر الأديان تجريدا .

وفى الأديان الأخرى من يعبد صنما ، أو يعبد شجرة أو بقرة .. أو نورا ، أو نارا .. أو ينحنى أمام صليب أو أمام قدس الأقداس وتوراة موسى ..

ولكن من الضرورى أن نعود إلى حياتنا ونحن صغار ونتساءل : كيف تعلمنا الحساب !

كان يقال لنا : واحد .. أى برتقالة .

ويقال : اثنان : .. تفاحتان ..

ويقال : ثلاثة كلاب ..

وبعد ذلك تجىء مرحلة تقول : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. من أى شىء .. من الأشياء المادية أو غير المادية ..

ولابد أن بعض الأديان قد ظهرت فى طفولة العقل البشرى ، فهى لم تصل إلى التجريد .. وكان لابد أن يقال لها : إن الله شجرة أو بقرة .. أو نهر . أو جبل . أو سحاب .. أو شمس ..

والذى يقبل الصليب الذى صنعه إنسان مثلا . ليس وثنيا ، ولكن الصليب رمز إلى معنى العذاب الذى لقيه المسيح من اليهود .. والذى يعبد النار والنور والسحاب ، ينسى أن هذه جميعا رموز إلى معنى أكبر . إن الإنسان لايعبد الرمز . وإنما بمناسبة هذا الرمز ، يستحضر المعنى الدينى . ولكن كثيرا من الأديان قد بقيت فى مرحلتها البدائية ، دون تغيير ..

وكل ما فى الإسلام من معالم تاريخية ليست إلا رمزا إلى معنى أكبر .
فالكعبة ليست مقدسة . وإنما هى أحجار فوق أحجار . والأحجار عادية

جدا . كلها قطعت من أحجار مدينة مكة . والحجر الأسود حجر عادى .. حجر أسود فى أحمر فى أصفر . قيل من البازلت وقيل من الأحجار البركانية ، وقال بعض العلماء الفرنسيين منذ أعوام ، إن هذا الحجر لايمكن أن يكون من الأرض .. ولابد أنه سقط من كواكب أخرى بعيدة .. ولكن المسلمين يصرون على أنه حجر عادى .

والكعبة نفسها طولها ٤٠ قدما وعرضها ٣٨ قدما وارتفاعها ٥٠ قدما .. والحجر الأسود يبدأ به الطواف ، وعنده ينتهى الطواف سبع مرات حول الكعبة .. والحجر الأسود ليس قطعة واحدة .. وإنما ثلاثة أحجار كبيرة ألصقت بعضها إلى جوار بعض ، وحولها قطع صغيرة من نفس الحجر أيضا .. وكانت الكعبة قديما فى طول قامة الإنسان . وكانت تغمرها السيول . وكانت تلتف حولها الأصنام . وهدمت الكعبة وبنيت .. ونقل الحجر الأسود بعيدا عن موقعه أكثر من عشرين عاما .. وأعيد بعد ذلك .. وبالإسلام ألقى النور على الكعبة وأصبحت مكانا محرما .

وغير الكعبة مثل مقام إبراهيم .. ومثل أحجار الصفا والمروة .. والسعى بينهما سبع مرات أى حوالى ثلاثة كيلو مترات ..

وتغير كل شىء الآن .. وضع الرخام والجرانيت حول الكعبة وفى أماكن السعى بين الصفا والمروة .. والذين يستطيعون الطواف أو السعى ساروا على أقدامهم .. أو حملهم الناس على رءوسهم .. أو دفعوهم على مقاعد لها عجلات بين الصفا والمروة .. وأضىء كل شىء بالكهرباء .. ولم يعد الناس يطوفون عراة حول الكعبة ، ولا الباعة والحيوانات تعترض سعى الحجاج بين الصفا والمروة ..

والكعبة رمز .. وأحجارها رمز .. وأحجار الصفا والمروة رمز .. وأحجار عرفات والمزدلفة رمز أيضا .. والأحجار التى يرجم بها الحجاج الشياطين ليست إلا رمزا أيضا .. وإن كان بعض الناس يتصورون أن رجم الشياطين : هو رجم حقيقى لشيطان حقيقى ، ولذلك لا يكتفى بعض الناس بإلقاء الأحجار الرمزية ، بل يخلعون نعالهم ويضربون الأحجار التى هى رمز للشياطين .. وبعضهم يطلق الرصاص على أحجار الشياطين .. وبعضهم يصرخ قائلا : أنت الذى جعلتنى أطلق زوجتى .. أنت الذى أعدتنى إلى السرقة وإلى الخمر .

مع أنه لا شيطان خارج الإنسان . فالشيطان هنا تحت ملابسنا .. فى جلودنا .. والنزعات الشريرة مثل كريات الدم الحمراء ، إذا كانت النزعات الخيرة هى الكريات البيضاء . الشر والخير معا . النور والظلام معا . الحياة والموت معا .. ولذلك فإن ديانات قديمة جعلت العالم مصرعا لهذين العدوين أو الضدين ..

وكل شىء رمز ..

والمطلوب من المؤمن أن يقف وأن يتأمل وأن يفكر .. وأن يجد الوقت ، ليستعرض حياته أمس واليوم وغدا .

والرسول يقول : الحج عرفة ..

أى أن الوقوف فى عرفات هو الحج . ولا وقوف فى عرفات . وإنما هو جلوس .. وهدوء .. وعلى الإنسان أن يفكر . وأن يقرأ القرآن .

ولكن الذى يحدث عادة وبسبب الزحام ، والبحث عن الطعام والشراب

والمأوى ووسائل الانتقال ، ألا يجد الإنسان وقتا لشيء .. اللهم إلا لحظات قليلة ..

ومع زيادة عدد الحجاج عاما بعد عام ، لن يجد الإنسان وقتا للتأمل ، أو التمتع .

والإسلام يريد من المؤمنين أن يجربوا ذلك عمليا . أن يشعروا . أن يستحضروا المعانى التاريخية . وأن يروا ماذا حدث . وكيف حدثت التضحية والمعاناة والصبر . والنصر فى النهاية .

ولم يعد الحج عملا شاقا . فالعلم الحديث قد يسر للإنسان كل شيء . فهو فى ساعات يصل بالطائرة . وساعات يصل بالسيارة أو الطيارة . وفى دقائق ينتقل . ويقيم .. ويقرأ ثم ينطلق يجمع الجمرات .. ثم ينطلق يلقيها ، وبعد ذلك يذبح الضحية .. وينتهى كل شيء !

ولكن أناسا من بلاد بعيدة لا يجدون وسيلة لهذه الحركة السريعة . بعضهم يجيء ماشيا عاريا وأمله كبير فى الله أن يموت فى الأرض المقدسة . ونساء حاملات يتعذبن ويتساقطن ، وأملهن عظيم فى أن يلدن فى الأرض المقدسة .. وأناسا بمئات الألوف يطوفون وقد انهدت قواهم ، وجفت أجسامهم .. وحلقوا شعورهم . ويحدث ما يحدث فى الزحام عادة . فى أى مكان ، أن يتخبط الناس بعضهم فى بعض . ويحدث أيضا ما يحدث فى أى مكان يتحرك فيه الإنسان جريا وطوافا وسعيا أن يعرق ـ ككل كائن حى ـ وأن تكون للعرق رائحة .. وأن يضيق الناس بهم .. وهذا الضيق جزء من المشقة .. والإنسان يثاب على قدر المشقة ، ولذلك يحرص هؤلاء المؤمنون البسطاء على أن يتضاعف عذابهم طمعا فى الجنة عند الله ، إنهم مؤمنون .

وقد وعدهم الله بذلك ، وآمنوا . وجاءوا طامعين فى الله .

ويحدث فى كل زحام : أناس مشغولون بالله ، وأناس مشغولون بالناس .. وتمتد الأيدى .. هذا ممكن ، فالإنسان هو الإنسان . والذى يرى الكعبة لأول مرة ، وربما لآخر مرة فى حياته ، غير الذى يراها كل يوم .. هذا مشغول وذلك فى شغل .. هذا حاج ، وذلك طالب قوت ، من أى طريق .. فالإنسان هو الإنسان فى كل مكان ..

ويحار الإنسان بين أن يشكر الله على أن يسر له كل شيء .. وبين شعوره بالخجل لهؤلاء الطاعنين فى السن ، الذين يحملون طعامهم وشرابهم وخيامهم على رءوسهم ساعات وساعات فى الطريق إلى الكعبة أو فى الطريق إلى عرفات وجبل الرحمة ، والمشعر الحرام (المزدلفة) ..

وطبيعى جدا أن يتساءل الإنسان ولكن ما معنى هذا ؟ والمعنى هو أن الإسلام يطلب من الإنسان أن يطيع ، وأن يتأمل وأن يفكر وأن يتأنى وأن يصبر وأن يؤمن إيمانا مطلقا بالله ورسوله وقرآنه .

ومن حق الإنسان أن يتساءل : ولماذا الصلاة خمس مرات .. ركعتين وأربعا وثلاثا .. ولماذا رفع اليدين ولماذا الركوع والسجود ؟

وكلها أسئلة معقولة . والإجابة عنها أنها أساليب مختلفة فى تعظيم الله ، والخشوع له . ولكن لماذا ! ؟

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال نتساءل أيضا : ولماذا يعلموننا عند المشى أن نبدأ بالرجل اليسرى .. ولماذا نمشى على اليمين .. ولماذا علامات المرور

ثلاث : أحمر وأصفر وأخضر.. ولماذا قواعد اللعب.. وقواعد كرة القدم والسلة والطائرة واليد والماء.. لماذا ؟

إن أحد لا يسأل عن هذه القواعد التى اتفق عليها ، والتزم بها كل الرياضيين. إنها قواعد عامة. وهى واحدة ليكون السلوك العام واحدا..

ولست فقيها فى الدين ، ولا مجتهدا ، لأننى لا أستطيع وإنما فقط أحاول أن أحاور نفسى. وأختار ما يقنعنى وما يريحنى. فكما أن شرط اللعب ، أن تقبل قواعده كلها ، أو لا داعى لأن تلعب.. بل إنك لا تستطيع أن تكون متفرجا تستمتع باللعب ، إلا إذا عرفت قواعد اللعب.. لغة اللاعبين والمتفرجين واحدة. لا أحد يسأل لماذا ؟ وإنما اتفقنا جميعا عليها. لنستريح إلى نظام ـ والعقل بطبيعته منظم ـ بفتح الظاء وكسرها أيضا.

وأنا لا أستطيع أن أفتى ، لأن معلوماتى الدينية واحد على مائة من معلوماتى الفلسفية ولا أستطيع أن أجتهد لأننى لم أدرس الدين واجتهاداته وتفسيراته وقرآنه وأحاديثه وتفسيراتها. ولن أستطيع. فالعمر قصير ، والدين طويل عريض عميق. وهذا الكلام لى ولغيرى من الناس العاديين. ولذلك نحن نختار ما يريحنا ونعيش به وعليه. ونتفق ونختلف من أجله !

والأكل له قواعد والشرب له أصول. والمناسبات والحفلات. والذى نلبسه فى البحر ، والذى نلبسه فى الفراش ، والذى نلبسه فى الأفراح والمآتم ، وفى لقاء الناس الأكثر احتراما ـ ومع ذلك نحن لا نسأل ولماذا ؟ وإنما نحن نمشى على الأصول التى توارثناها وارتضيناها. ونكون مثل الجميع. لا شذوذ عن أحد من الناس. والدين. وكل نظام اجتماعى أخلاق سياسى رياضى عسكرى يريد الطاعة والاحترام والسلام والخير لكل الناس..

وكل عام يزور هرم الملك خوفو جماعة من الأوروبيين من «عباد قرص الشمس» أو أصحاب علامة «الصليب الوردى» ويدخلون قاعة دفن الملك خوفو.. ويقيمون صلواتهم فى دقائق. ولو رآها الإنسان لسخر منها. ولكنهم يؤدونها مع عميق الاحترام. وينصرفون أكثر إيمانا ـ مثلا : ما معنى أن يرتدوا ملابس على شكل هرم مقلوب عليه وردة وصليب. ما معنى أن ترتفع الأيدى وتهبط إلى حيث دفن خوفو ، ويصلون للإله أخناتون ويكررون حكمة أخناتون وسليمان وموسى وعيسى ثم اسم كريستيان روزن كرويتس أول من دعا لعبادة الشمس فى العصر الحديث. ما هذه الحركات المضحكة ؟ ما هذه البلاهة.. إلى آخر الأسئلة التى فيها استنكار واستخفاف مما يفعلون.

ولو قدر لهم أن يقفوا أمام مسجد من المساجد لأدهشتهم الحركات والدعوات.. والخشوع.. واندهشوا لشكل القبلة التى يتجه إليها الناس. وقالوا ما يعجبهم. ولكن الدهشة متبادلة ، والمعنى واحد. كل دين له قواعد وأصول ورموز ويتطلب الطاعة والإيمان. ولكن الإسلام يطالب المؤمنين بالتفكير فى كل مخلوقات الله فى الأرض وفى السماء وفى الإنسان نفسه ، فليست هذه الأشياء إلا صورا مادية لقدرة الله. وعن طريق النظر إليها وفهمها ، يصبح الإنسان قادراً إلى حد ما على فهم شىء قليل جدا عن الله !

ولو قلت لكل حاج من بلد بعيد : وما هى أحجار الكعبة إنها ككل الأحجار. وما هى أحجار عرفات ؟ إنها مثل كل الأحجار ـ ولو قلت ذلك. فإن منهم من يصدق. ومنهم من لا يصدق. ولكن أى ضرر فى أن يرى الناس أن هذه الأحجار قد اكتسبت قداسة التاريخ.. أى ضرر فى أن يتمسح الناس بأبواب السيدة زينب والحسين وقبر رسول الله.. لا ضرر ، ولكن الناس يجدون فى ذلك

الراحة النفسية . فإذا استراح الناس بالفعل فأى ضرر على الناس أو على الدين .

إن أكثر الأمراض الآن تشفى نفسيا . والذى يسميه الأطباء « بالحساسية » ليس إلا الإحساس أيضا . ولذلك أصبح من الضرورى لكل طبيب أن يكون على فهم بعلم النفس . وكان رجال الدين يقومون بهذا العلاج منذ ألوف السنين . وفى مصر الفرعونية . وفى الهند والصين كان رجال الدين أطباء وحكماء العصر..

بل إن الذى يتعب كثيرا من السفر إلى الأراضى المقدسة ، يريحه أكثر أن يتلقى مكافأة معنوية على العذاب الذى شواه بالنار فى جسمه . هذا الثواب هو أن يقال له : إن الكعبة تشفى من المرض . والطواف يقوى القلب . والسعى يشد العضلات . وعرفات يجعلك صافيا مغسولا من الخطايا كما ولدتك أمك ــ ومن الصعب أن يعود الإنسان كما ولدته أمه . كيف . وماضيه وتاريخه .. وما ترسب فى نفسه . والناس الذين سيعود إليهم ويعمل معهم وضدهم وبهم .. ويعانى من جديد كل مصائب الدنيا ــ صعب جدا أن يعود الإنسان طفلا . ولكن يسعده أن ذنوبه وخطاياه قد حملت عنه .. وألقيت من فوق كتفيه ومن فوق ضميره ، ويسعده ذلك . فأى ضرر على الإنسانية أن يشعر الإنسان بذلك . إنها سعادة ولا شك . وراحة وشفاء من كل داء ، ومن داء التاريخ . فكل إنسان له تاريخ . وهذا التاريخ يوجعه فى كل مكان من جسمه ونفسه ..

والقرآن الكريم يعلم تماما أن الإسلام دين من الأديان ، ولكنه يفضلها . ويرى أيضا أن أديانا كثيرة لم تكن قادرة على التعبير ، ولا حفظت كتبها تماما ، ويعلم أن الخرافات قد دخلت . ولكن الله هو الذى أرسل هؤلاء

الرجال ذوى الاستعداد الخاص لتوحيد الناس إلى خير الناس .

يقول القرآن : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى . وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » .

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

« ولوطا إذ قال لقومه » .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » .

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون .. » .

وعن عيسى عليه السلام قال : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » .

« لا إكراه فى الدين » .

وأنا أحاول أن أقوم لنفسى ما يريحنى وأحاول أن أنقله للناس الذين هم ليسوا من رجال الدين أو التفقه فى الدين . ولكن بعضهم حائر . كما كنت حائرا .

ويسألنى هنا وفى الأراضى المقدسة كثيرون .

ــ ولماذا الآن !

ــ ولماذا لا أقول ما اهتديت إليه وهو قليل . فى أى وقت ؟ .

ــ ما المعنى ؟

- إنى أحاول أن أجد معنى لما قرأت وما حاولت أن أفهم وأن أقول إننى أضعت سنوات طويلة . وضعت أيضا . وفجأة وهناك وجدت ما يريحنى . وجدت ما ينفضنى وما يقتلعنى من أرض غريبة ، ويعيدنى إلى أرض أهدأ وأثبت .. ولو عرفت ذلك من زمن طويل لكنت أحسن حالا .. ولكن كل شىء له أوان .. ربما كان هذا أوان هدايتى .

- وسوف تكتب دائما كذلك !

- أتمنى . ولكن لا أستطيع ، هذا ما أقوله لنفسى ، لا عن تواضع ، ولكن عن أسف . فالذى أعرفه قليل . والذى أستطيع أن أجتهد فيه قليل جدا أو معدوم جدا ولكن سوف أقول دائما ما أستطيع أن أفهمه أكثر ، لعلى أنفع أكثر . وكله عمل ، والعمل عبادة . مادام الخير العام هو الذى أقصده ، وكنت أقصده دائما ، فى كل ما أكتب ، أو هكذا أتصور نفسى ..

وأسئلة أخرى من بلاد بعيدة فى رسائل القراء :

- وهل خلعت ملابسك ؟
- طبعا .
- وهل طفت وسعيت ولبيت ؟
- طبعا . إنى ذهبت من أجل ذلك . ذهبت وأنا أعرف ذلك ..
- هل ترى نفسك مؤمنا ؟
- أخيرا . هذا مؤكد .
- كيف تجد نفسك الآن ؟

سؤال صعب .. ولكن أستطيع أن أقول .. كنت صحراء قاحلة ، والآن فيها ماء ، كنت ليلا بلا نهار ، واليوم أشرق فى نفسى مالا أعرف أن أصفه

لك .. هل هو نور .. هل هو نار .. هل هو دفء .. هل هو احتراق .. هل خرجت من جسمى أطراف اعتمدت عليها فى سيرى وفى حركتى .. هل كانت عندى عينان بلا حدقتان .. والآن لكل عين حدقة .. هل كنت أقول كلاما بغير منطق ، وأصبح لى منطق .. هل كانت عملتى بلا غطاء ذهبى .. والآن أصبح لها غطاء .. هل كان عالمى بلا إله .. فأصبح لى إله .. أو الله - وهو الأصح .

- ما الذى تستطيع أن تفعله ؟

- لا أستطيع أن أفعل الكثير . إن قدراتى محدودة . ومعلوماتى محدودة وما أوتيته من العلم قليل . وكل إنسان كذلك . وأكثر الناس علما أكثرهم تواضعا . وقد تعلمت من الفيلسوف الألمانى كانت : أن هناك شيئين يبهران الإنسان ويغمرانه بالجمال والجلال : النجوم فى السماء وصوت الضمير فى أعماقى .. وهما اسمان لمعنى واحد هو : الله .

وتعلمت منه أيضا : أن أحنى رأسى أكثر ، لأكون أكثر احتراما ، وأن أغمض عينى أكثر ، لأرى أكثر ، وأن أسد أذنى أكثر ، لأسمع أكثر ، فإن معرفة الله لا تكون إلا بالصمت والتأمل ونحن كلنا آذان وعيون وأفواه .. ونسينا أن لنا عقولا وقلوبا .. فنحن إذا تكلمنا لم نسمع ، وإذا سمعنا ، لا نفهم . وإذا فهمنا ذهب بنا الغرور إلى أننا قد عرفنا كل شىء . فإذا شعرنا بأننا نعرف كل شىء ، لم يصعب علينا أن ندعى الألوهية .. فإذا ادعينا ذلك . فقد أصبحنا حيوانات مفترسة . تنكرنا لإنسانية الإنسان . وعقل الإنسان ووجدان الإنسان .. وهنا فقط لا إله ولا داعى له .. فليست الحيوانات آلهة !

ـ ولن يتغير رأيك بعد ذلك ؟

ـ ليس لى رأى .. وليس الذى أقوله أو أحاول ذلك ، رأيا .. ولكنها حقيقة كشفتها وكشفتنى .. وأحاول أن أعبر عنها فقط : فأنا لم أخلق رجلى : وإنما أنا أستخدمها فقط أو أمشى بها فقط . والله حقيقة عضوية . كونية رياضية مقدمة طبية فنية .. دينية أخلاقية .. وأنا لم أهتد إليه .. ولكنه هو الذى هدانى إليه .. وأنا أحاول أن أصف هذه الخطوة . والذى عرفته ليس مرحلة بعدها أعود إلى مرحلة أخرى . ولكنها نهاية .. وسوف أقضى ما تبقى من عمرى أحاول أن أجد طرقا أخرى إليه .. فهو فى كل شىء وكل فكر وكل عصر وهو الكل . فالكل فيه وبه وعليه وله .. هو كل هذا الكل .

ـ ماذا تقول فيمن لايزال يعبد الأوثان والحيوان ؟

ـ أرى أن هذا طبيعى . فهو لم يرتفع إلى مستوى الإدراك الصحيح . فهو بدائى . والذى يرى الشمس مصدر الحياة أو هى الحياة معذور . والذى يرى أن الماء هو مصدر الحياة ، ويعبد النيل ، معذور أيضا .. والطفل الذى يرى أن والده هو أعظم رجل فى العالم معذور .. وإذا رأى بعد ذلك أن العسكرى هو أقوى من والده ، وأن المأمور أقوى من العسكرى . وأن الطبيب أعظم الجميع . هو طفل صغير ..

وأنا أذكر أننى رافقت جماعة من الأشقاء العرب جاءوا من بعيد فى الأرض وفى التاريخ وسألتهم عن الشىء الذى أعجبهم فى القاهرة .. هل هو النيل .. هل هو البلاجات .. أو العمارات .. أو الفتيات أو السيارات .. ولكنهم لم يعجبوا بشىء من ذلك . وإنما أعجبهم شىء واحد لا يجدون له تفسيرا .. ويرون أنه أكبر دليل على وجود الله . وسألت ما هو ؟ قالوا :

الأسانسير .. لأنه يطلع وينزل بلا صوت ولا نار ولا دخان !

مع أنهم جاءوا إلى القاهرة فى طائرة نفاثة .. لها صوت وصراخ . ولذلك فإن الأسانسير أفضل منها . مع أن الأسانسير آلة بسيطة جدا إذا قورن بالطائرة الشديدة التعقيد !

وأعتقد أننا أيضا فى مرحلة الإعجاب الشديد بالأسانسير .. ولم نصل بعد فى علمنا وفهمنا إلى مراحل الطيارة أو الصاروخ أو سفن الفضاء .. أو مدن الفضاء أو أتوبيسات الفضاء ..

واقترح كثير من الأصدقاء أن أكتب فى موضوعات شتى . وهو حسن ظن لا أستحقه ، ولن أفعل ذلك الآن فأنا أعرف حدودى العلمية والعقلية . ولكن إذا تيسر لى ذلك فسوف أفعل إن شاء الله قريبا ..

وبعد ..

فإننى لم أقل كل ما أريد .. وإنما قلت بعض ما أستطيع . ولم أشأ أن آخذ القارئ فى دوامتى العقلية والوجدانية . وإنما حاولت فقط أن أصور عذابى العقلى وحيرتى الدينية .. وكيف أننى خرجت منها إلى شاطئ أمين .. شاطئ طويل عريض لا أعرف فيه إلا القليلين من الناس ، والقليل من الأشياء .. وأمامى بحر لا أعرف كيف أسبح فيه .. وكم أبعد عن الشاطئ . ومتى أعود إليه . ومتى أخاف منه ، ومتى أنقذ نفسى . أو أصرخ فى أحد أن يفعل ذلك . وإنما أعلم أنه لا أحد ينتظر أحدا . ولا أحد يرى أحدا . إن كل إنسان مشغول بنفسه . بهمومه . ولذلك فالناس لا يسمعون الناس . وإذا سمعوهم فلكى يستفيدوا منهم ، فالحياة فائدة متبادلة . وسلعة تروح وتجىء . وعملة تزيد وتنقص . ويد تأخذها ويد تأخذك . وعين تراك وعين تتجاهلك . هذه

حياة كل الناس . والناس معذورون . فالحياة صعبة وقصيرة .

ولكنى طلبت من الله الكثير . فأعطانى القليل الذى أستحقه . وكنت أريده أكثر . وسوف أطلب أكثر وآخذ أكثر . فالله قد وعد بذلك . ولكن القليل شفاني : راحة نفس . ووضوح رؤية . وصفاء عقل . وانشراح صدر . وسهولة فى التعبير عما فى نفسى .

وليس هذا قليلا . فالحمد لله .

كان بعيداً عن الناس وأسمى منهم !

أن يكون أبعد وأعلى ..

ولذلك ذهب إلى «غار حراء» وهو فى العشرين من عمره ..

بل إنه كان بعيداً عن الناس وأسمى منهم وهو مايزال طفلا .. غريب هذا الطفل وهذا الشاب وهذا الرجل .. نظيف . أمين . صادق . إذا ذهب الشبان للهو لا يذهب . وإذا حضر اللهو غلبه النوم .. إنه بعيد عنهم حتى لو اقتربوا منه .. غائب عنهم حتى لو التفوا حوله .. إن الذى يدور فى داخله شىء آخر مختلف .. إنه هو نفسه لا يعرف . ولكنه أخلص لطبعه وطبيعته وسار وصعد يرى ويسمع ويتأمل .

فى العشرين من عمره صعد جبلا على مدى ثلاثة كيلو مترات من مكة .. الجبل اسمه الآن (جبل النور) أو جبل حراء .. تسلقه عشر سنوات فى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . وفى أيام الجمعة والسبت والأحد ينزل يعيش بين أهله غريباً عن الناس ..

وبعد سنة واحدة من ذهابه إلى «غار حراء» تزوج خديجة . وكان فى الخامسة والعشرين من عمره . يصعد الجبل ومعه القليل من الشعير ولبن الماعز .. يقضى النهار والليل .. فى صمت فلم يكن وحده . وإنما كان مع كل معانى الكون .

فليس أعظم من أن يكون الإنسان فوق ليرى كل شىء صغيراً .. الناس وحياة الناس وهذه الدنيا .. ويرى الله كبيراً فى خلق الناس وهذا الكون .. فى السماء والأرض .. وفى العقل وفى النفس .. كل شىء ذاهب إلا الله باق .. كل شىء كثير إلا الله واحد .. كل شىء صغير إلا الله جليل ..

ما هذا الذى يفعله الناس هناك .. وحول الكعبة ؟

فهو من الغار الذى أقام فيه عند قمة الجبل يرى الكعبة .. حولها أناس وكلاب ولصوص ومخمورون ونساء كلهم يتزاحمون . وبسرعة يختلفون وترتفع السيوف وتسيل الدماء ويجىء الذباب ..

هذه هى مكة .. وسميت مكة لأنها جافة من الماء .. ويقال : مك الشىء أى امتصه .. فهى تمتص الذنوب .. ولكن ذنوب هؤلاء الوثنيين عندما تمتصها مكة تتجدد من جديد .

هذا المعبود اسمه «هبل» إنه تمثال من حجر العقيق بذراع واحدة .. وتجىء القبائل تضع للتمثال ذراعاً من ذهب .. وأمام «هبل» يستغرق الناس فى لعبة «الزهر» .. وعلى كل واحدة من الزهر مكتوبة كلمة .. لا .. أو نعم .. أو كلمات : لى .. لك .. للمعبود «هبل» .. والناس يلتفون حول التمثال يرمون الزهر أمامه .. ويذبحون الجمال .. ويأكلون ويشربون .. ويقدمون القرابين لهذا الحجر الذى صنعه بشر . ويحميه بشر . ويدعوه ويدعو عليه .. ويبصق عليه بشر أيضاً .. ولكنهم يعبدونه ويستحلفونه ويصدقونه ..

وهناك حجر اسمه : اللات .. يعبدونه ..

وهناك ثلاث نخلات اسمها : العزى يعبدونها ويلقون عندها همومهم وكروبهم

ويذبحون أغنامهم وإبلهم .. ويقولون إن النخلات الثلاث تكلمهم وتكشف أسرارهم وتفضحهم بعضهم أمام بعض .. فهم جاءوا من أقصى الصحارى ليتعروا أكثر أمام الآلهة .. وهكذا تتحكم فيهم الأحجار وعادات قبلية أكثر قسوة من الأحجار . والكثير يدورون حولها ويبيعون ويأكلون ويشربون ويتسولون هم وحيواناتهم .. ويعلقون على جدرانها ثرواتهم وفى داخلها يضعون عقودهم ومواثيقهم .. ولكن لا قداسة للمكان لأنه لا قداسة لأحد .. فلا أحد إلا الأوثان وإلا الأحجار وإلا السيوف والدم والفجور والبطش والجوع .. وحروب القبائل .. وإلا ثروات الأغنياء وجشعهم وذل الفقراء وهوانهم .

ومن هناك فوق ما الذى يراه الرسول محمد من غار حراء .. يرى من بعيد حجر الصفا .. وحجر المروة .. والطريق بينهما من تراب وذباب .. وهناك تمثال من حجر يعبده الناس .. ويمسحون أيديهم ووجوههم .. وأطرافهم الموجوعة .. وتمثال آخر تمسح عنده النساء بطونهن وظهورهن وصدورهن ويتمنين شيئاً من الذرية أو من السعادة الزوجية ..

وليس هذان التمثالان لأحد من الناس الطيبين – إنهما لاثنين من الفاسقين .. ففى ذلك الوقت كان كل شىء هنا خانقاً كل شىء فى مكة وحول الكعبة . الشمس محرقة والناس يهربون منها إلى الخيام وإلى النخيل وإلى النوم .. وجاء الليل فازدادت الحرارة واختفى الناس .. وتسلل رجل وامرأة إلى داخل الكعبة . وتجاوزا والتصقا حتى تحولا إلى تمثالين من حجر . وأصبحت فضيحتهما عملا فنياً . تمثالين بارزين . دليلا مسموماً مقنعاً . ورجمهما الناس ولعنوهما .. وتكاثر الرجال حول الكعبة .. وتكاثرت الأيام ومضت بعدد الرمال حول الكعبة . ونسى الناس من هما صاحبا التمثالين .. وظن الناس أنهما من الآلهة .. وانتقل تمثال الرجل واسمه :

أساف .. والمرأة اسمها : نائلة . أحدهما عند الصفا . والآخر عند المروة . وعبدهما الناس .

ومن جبل حراء هذا بنيت الكعبة .. ويقال إن (شيث) بن آدم عليه السلام أخذ أحجار هذا المكان المقدس من جبال سينا ولبنان وحراء . ولما جاء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل أقاما الكعبة من أحجار جبل حراء .

وعندما كان النبى عليه السلام شاباً كان يحمل الأحجار المقطوعة من جبل حراء على عنقه وعلى رأسه.. ولما اختلفت القبائل أيها يضع الحجر الأسود فى مكانه احتكموا إلى رسول الله .. ووضع الحجر الأسود فى ثوبه .. وأمسكت القبائل ثوبه .... كل من ناحية .. وامتدت يده هو ووضعته فى مكانه . واستراحت القبائل إلى أنها شاركت فى وضعه .. فلا فضل لقبيلة على أخرى . وكان وضع الحجر إشارة إلى أن الرسول سوف يضع حجراً وراء حجر لدين كريم لقريش وكل القبائل الأخرى والشعوب .

وهناك ومن غار حراء الذى يتسع لخمسة جالسين معاً ، كان الرسول يرى كل هذا الكفر والفسوق ولا يطيقه ولكنه لا يعرف ما الذى يمكنه أن يفعله .. أو ما الذى يستطيعه .. إنه واحد ، وهم كثيرون .. إنه فقير وهم أغنياء .. إنه يتيم .. إنه نظيف .. إنه أمين .. إنه مختلف .. إنه لا يستطيع أن يشارك .. أن يمد يداً .. أن يغض عيناً .. إنه فوق .. وأنه بعيد .. وأنهم فى أسفل السافلين .

ولما تزوج السيدة خديجة . كانت ترى أن شيئاً عجيباً يضاف كل يوم إلى هذا الزوج الصالح .. أول ما رأت .. أنه إذا نام وقام وروى لها حلما يكون الحلم صادقاً . فكل ما يراه يقع . فلم يكن حلما وإنما هى رؤية صافية صادقة . إنه يرى ما سوف يحدث .. وليس هذا بالقليل . إن الإنسان يحدث له ذلك مرة كل

سنة .. أو مرة فى العمر كله .. وعندما يكون فى حالة توازن للجسم والنفس أى إذا ما كان فى حالة سواء .. صفاء .. شفافية ..

إن علماء النفس يجدون فى الرؤى الصادقة دليلا على أن هناك قدرات خارقة عند بعض الناس بعض الوقت .. وهذا معناه أن الإنسان يستطيع أن يرى أبعد مما يرى الناس .. فأنا إذا رأيتك الآن .. فأنا أراك فى هذا المكان وفى هذه اللحظة .. وإذا ابتعدت عنى عشرة آلاف متر فإننى لا أراك .. لأن قدرتى على الرؤية فى المكان محدودة .. وإذا أنت جئت إلى نفس المكان الذى تقف فيه فأنا لا أراك إذا لم أكن موجوداً .. فشروط الرؤية أن نكون معاً على مسافة واحدة فى المكان والزمان .. ولكن الذى يرى مايحدث على مدى ألوف الأميال .. وعلى مدى ألوف الدقائق أو الساعات هو العجيب الغريب . إنه يرى ماسوف يجىء فى المكان والزمان وبوضوح كل يوم .

وبعد ذلك كان الرسول عليه السلام يتأمل كثيراً .. يصمت . ويطيل النظر . وينشغل تماماً كأنه يستمع إلى أحد غيره . أو يستمع إلى أصوات لا يسمعها الناس .. فهو بعيد النظر وبعيد السمع أيضاً .

وكان الرسول عليه السلام عندما اختار غار حراء اختار العزلة العالية والوحدة الرفيعة . والسمو الشاهق . وأن يكون فى معية الكون كله .. قوانين الكون وحكمة الحياة وأصل الوجود .. هناك بعيداً عالياً عن الناس والأشياء .

وفجأة جاءت الأحداث الجليلة .. لقد رأى وسمع . رأى وسمع من يقول له : اقرأ .. وهو لا يعرف القراءة ولا يعرف ماذا يقرأ .. فالصوت يقول له : اقرأ .. مرة ثانية وثالثة .. والرسول يقول : ما أنا بقارئ .. فيقول له : اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ..

وكان الصوت مليئاً عميقاً .. هزه من رأسه حتى أصابع قدميه .. تفجرت فيه الحرارة والعرق . والبرودة والخوف والفزع . شيء عجيب غريب .. ما رآه قبل ذلك .. ولا انتظره .. ولا عرفه ولا سمع به .. هبط الرسول من جبل حراء .. إلى زوجته يطلب إليها أن تحتضنه أن تمسك به .. أن تحميه . أن تعيده على ما هو فيه . وهي تعرف أنه صادق . وأنه أمين . وأن شيئاً لا تدريه هي أيضاً سوف يحدث له .. وحدث له .. وأخذته إلى راهب قرأ في المسيحية واليهودية .. ولما روت له ما حدث .. أكد لها أنه نبي .. وأنه سوف يكون نبي هذه الأمة .. فالذى جرى له .. وجرى عليه . قد حدث لموسى .. وحدث للنبيين من بعد موسى ..

والقرآن يقول : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .

هذا هو الوحي :

ينزل صورة وصوتا .. يملأ كل شيء حوله .. إن قوة هائلة طولها السموات والأرض تدخل في جسمه الصغير .. تفيض فيه .. تتدفق بغزارة وحرارة .. إن تياراً كهربياً عالياً يلمسه فيهزه بعنف .. وكان الرسول لا يقوى عليه .. كان يصاب بما يشبه الحمى .. وكان هذا الوحي ينزل عليه جالساً وماشياً وراكباً .

فإذا نزل عليه وهو فوق ناقته كانت الناقة تبرك على الأرض .. وتلهث كأن الذى يجلس عليها جبل .. فإذا فرغ الوحي من تبليغ الرسالة . عادت الناقة ترفع رأسها .. كما يعود الرسول إلى حالته العادية ..

والله يقول له : «إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا» ..

والرسول يقول : شيبتني «هود» وأخواتها ـ أى سورة هود وسور أخرى كثيرة .. فقد كان نزولها عليه يهزه ويهده .

وظل الرسول يتلقى الوحي .. ويدعو إلى دينه الجديد سرا . وجاءه الوحي

يدعوه إلى أن يجاهر بالدعوة .. يقول الله تعالى : «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» .. وجاهر الرسول بالدعوة . وجاهر المشركون بالإيذاء له ولأتباعه من المسلمين .. ولكنه مضى يدعو في كل مكان .. واستمر الناس يتربصون به في كل مكان .. وطارت الأحجار وأحشاء الحيوانات والدماء يلقونها عليه أينما ذهب .. وهو صابر على دعوته .. إنه يدعو الناس إلى ترك عبادة الأوثان .. إلى السلامة .. إلى النظافة والطهارة .. والرحمة والتواضع .. وإلى أن متاع الدنيا قليل . وإلى أن الله أبقى من كل ما في أيديهم وفي نفوسهم ..

وازدادت قريش . قبيلته . قسوة عليه وعلى المؤمنين به من الأطفال والشبان والنساء والعبيد . وقالوا : دين الضعفاء ـ ولكنهم أقوياء بدينهم وربهم ..

عشر سنوات يدعو فيها الرسول علناً في مكة .. وحول مكة .. والعذاب والهوان والاحتقار والتهديد والوعيد والإغراء بالمال والسلطة . يرفضها الرسول والمؤمنون ..

والرسول يدعو الله قائلا : يا مقلب القلوب ثبتني على إيماني بدينك ! .

ويوم ذهب الرسول إلى الطائف على مدى ستين كيلو مترا من مكة يدعو ويبشر وينذر .. طردوه .. ووقفوا صفين .. ثم جلسوا صفين وكل واحد في يده قطعة حجر .. سار الرسول بين الصفين .. وكلما وضع قدما دقوها بالحجارة .. حتى دميت قدماه .. ومن أعماقه قال : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي .. وقلة حيلتي وهواني على الناس» ..

ذلك الدعاء الجميل الصبور .

ونزل الوحي يطلب إلى الرسول أن يهاجر .. وكان الرسول قد رأى في نومه أنه سوف يهاجر إلى مدينة فيها نخل .. وفي المدينة ذاق طعم التمر لأول مرة في حياته !

وهاجر المسلمون إلى الجنوب وهاجر منهم آخرون إلى المدينة ..

وكان الرسول ينظر إلى مكة حزينا ويقول : «والله إنك لأحب البلاد إلى نفسي . ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» .

وذهب الرسول وأبو بكر إلى غار ثور .. وأقاما فيه ثلاث ليال .. وكاد المشركون يمسكون بهما . وفزع أبو بكر . وقال له الرسول : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ..

ونزل القرآن يقول : «إلا تنصروه فقد نصره الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه . وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا . والله عزيز حكيم» ..

وبعد ثمانية أيام أو عشرة وصل الرسول إلى مشارف المدينة المنورة .. واستقبله أقاربه من بنى النجار يتغنون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع
طلع البدر علينا

* * *

"ثانى اثنين إذ هما فى الغار"

ومن الذى لا يحاول أن يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه الرسول العظيم .. فى هذا الطريق إلى غار حراء سار الرسول أكثر من ألفى يوم .. طالعاً نازلا .. متفكراً متأملا متألماً ــ خفيفاً بصفاء روحه وثقيلا بهموم قومه وكل الناس .

الناس يسمونه «جبل النور» فمنه وفيه ظهر جبريل .. ومنه خرج نور يهدى الناس إلى سواء السبيل .. إلى كلمة سواء .. إلى ما هو أنفع وأرفع .. الطريق صعب .. وأنا لم أستعد لهذا الصعود .. ولا خبرة لى به . وكلما عرضت هذه الفكرة لم يفلح أحد فى أن يخفى استخفافه ــ أو دهشته .. أما الدهشة فلأنه طويل صاعد صعب .. ولأنه من الصعب على من اقترب من الخمسين ويزيد وزنه على الثمانين أن يصعد كل هذه الصخور إلى ارتفاع شاهق .. ووجدت الناس على حق .. ولكن أريد أن أرى . أن أمشى . أن ألمس . أن أستذكر .. أن أسترجع . أن أكون على مقربة من مكان تغيرت فيه الدنيا .. هناك متنفس رجل عظيم ــ هناك .. فوقه . كان الرسول وحده مع الله وحده .. كانت السماء تعد جسمه لأن يكون جهاز استقبال فريداً ... يستقبل كلمة الله التى هى السماء والأرض وما بينهما .. إن جسم الرسول لابد أن يعد إعداداً خاصاً .. لابد أن يروض على الصفاء أكثر . والنقاء أشد . والإحساس أرهف .. لابد أن يتعرض للضوء الباهر ليعاد ترتيب خلاياه وذرات عقله وقلبه .. وفى هذا الغار . فى هذه

الغرفة الصخرية وعلى هذا الارتفاع وفى مواجهة نور السماء . أعيد تكوين الرسول ليقدر على أن يتحمل الضوء الإلهى والصوت المبىء والكلام المنزل .

ووقفت عند سفح الجبل من الناحية الأخرى .. لا توجد أية معالم لأحد قد صعد .. ولكن من المؤكد أن كثيرين أشد إيماناً وأخف وزناً وأكثر حيوية قد صعدوا كالغزلان .. ولكن ما الذى صعدوه .. الصخور متقاربة .. مثل أنياب من الجرانيت مفتوحة .. لا أكاد أتقدم خطوة حتى أقع بين نابين .. قدمى على ناب ويدى على ناب .. وأمامى وورائى أنياب .. والصخور نظيفة يمسحها الهواء أولا بأول .. وقد نصحنى كثيرون أن أخطو إلى الأمام وألا أنظر ورائى .. فالطريق أمامى طويل صاعد عصبى .. لا يكاد ينحنى يمنة ، حتى ينحنى إلى اليسار بحدة وشدة .. وفى أول «الطريق» – وليس هناك طريق – أشجار وعلى الأشجار تعلقت لفافات من القماش .. فالناس يلفون القماش حول غصن صغير ويطلبون من الله ، بحق هذا المكان الكريم ، أن يحل عقدهم .. كثير من العقد على هذه الأشجار .. وقد رأيت مثل هذه «البدع» فى أماكن كثيرة .. رأيتها عند «حائط المبكى» . فاليهود يكتبون شكاواهم ويلفونها فى ورقة ، ثم يضعون الورقة بين الأحجار ..

وفى أضرحة الأولياء فى مصر يلقى الناس خطاباتهم إلى الأولياء .. تماماً كما يفعلون ذلك مع الحكام : وكأن الأولياء أحياء قادرون على أن ينفعوا الناس أو يضروهم .. ولكن الناس يستريحون إلى ذلك .. وفى اليابان وجدت الناس يهزون المكانس التى فى مداخل المعابد .. أملا فى أن تقوم الآلهة بكنس هموم الناس وتعاستهم .. ورأيت الناس عند تمثال بوذا يلقون عليه الورود بعد أن يقطعوا من كل وردة ورقة .. ثم يقولون معها كلمة دعاء .. ورأيت الناس فى

الهند يلقون بملابسهم القديمة فى الأنهار المقدسة – لعل الأنهار أن تأخذ أمراضهم وشقاءهم إلى غير رجعة ..

وفى الطريق إلى الغار وجدت الناس يكتبون أسماءهم على الصخور .. ولكن الطريق ليست له معالم . وكنت أنظر إلى القمة التى لا أراها بوضوح .. وأمد يدى إلى الصخور .. وأرفع ساقى .. وأتسلق ولا أعرف ما بعد ذلك .. وأقول : كان الرسول إنساناً آخر .. وكان شاباً .. وكانت عنده قضية كبرى : وتنتظره نداءات السماء .

وطال الطريق . وتوقفت ألهث .. وأحسست أننى ارتكبت مجموعة من الأخطاء . فلم أرتد حذاء يمسك قدمى فلا تنزلق .. وكنت أرتدى جلباباً .. وكنت أذوب عرقاً . والجلباب لا يمتص العرق .. وإنما يتركنى وحدى فى مهب الهواء البارد .. ولو كنت أرتدى قميصاً وبنطلوناً لالتصق القميص يمتص عرقى ويمتص خوفى من لفحة هواء لصدرى وحلقى .. ولم آت بعصا أتوكأ عليها .. ولم أتعلم تسلق الجبال .. بل إننى لا أقوم بأية رياضة فى مصر . ورياضتى الوحيدة هى هبوط سلالم «أخبار اليوم» بأدوارها التسعة ..

وأذكر أننى تمشيت مع الصديق أحمد فراج على النيل نصف ساعة . بعدها رحنا نهنئ أنفسنا بفاتحة النشاط العظيم الذى سوف ينظم الدورة الدموية ، ويزيل الشحم ويشد اللحم ، ويشحذ العقل ويقوى القلب .. وكانت مرة واحدة .. وكان ذلك رقماً قياسياً لنشاطنا فى عام كامل .. وأنا الآن أصعد الجبل .. وأحاول أن أقرأ الأسماء على الصخور – ولم تكن محاولة القراءة إلا حيلة لكى أتوقف بعض الوقت لألتقط نفسى : ولتبرد حرارة جسمى – ولكنى فى نفس الوقت لا أستطيع أن أقف طويلا فأنا أخشى أن تغرب الشمس فلا أعرف

كيف أهبط الجبل .. وهذه غلطة كبرى أننى صعدت الجبل قبل الغروب بقليل !.

وتكاتفت الصخور كلها مرة واحدة كأنها لا تريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك . فالصخور كتلة واحدة .. كأنها حائط .. كأنها سقف .. سد منيع . وفى لحظة ضعف فكرت أن أكتفى بهذا القدر على أن أعود غداً .. ولكن هذه الفكرة ألقيتها فوق هذه الصخور بسرعة ورأيتها وقد تبددت إلى ذرات .. وكل ذرة منها انقلبت عفريتاً .. أو إبليس الذى كان يريد أن يصدنى عن شىء رائع يتمناه كل أحد !..

وبعد دقائق طويلة .. واستراحة بعد أخرى .. وجدت مكاناً على شكل حوض ماء .. الحوض جاف .. كانت إذا نزلت فيه الأمطار بقيت بعض الوقت .. ولابد أن الماء يكون بارداً على هذا الإرتفاع .. ولابد أن الناس كانوا يشربون منه .. ولكننى لم أجد ماء .. وإنما بقايا الماء على الجدران .. ووجدت سلماً صغيراً ينزل إلى عمق الحوض الذى يبلغ المتر ـ أما طوله فمتران وعرضه متر ونصف متر..

وبعد ذلك عاودت الصعود .. الأحجار ما تزال حادة بارزة .. إنها أنياب أو أضراس حيوان متوحش كلفته السماء بأن يحرس صاحب الغار .. بعيداً حتى عن الهواء إذا فكر أن يتسلل إلى هدوئه الكريم .

وعند قمة جبل حراء .. هذا هو الغار .. أو الجانب الخلفى من الغار .. له فتحة على شكل شفتين متجمدتين من الحجر الأحمر الجرانيت .. كأن الغار أراد أن يقول شيئاً . ولكن فجأة تحولت صرخاته إلى شفاه جامدة فسكت منذ ذلك الوقت .. وإنما الذى نطق بالحق هو الرسول الكريم ..

والغار له فتحة من الناحية الأخرى فى مواجهة مكة .. فى مواجهة الكعبة ..

وكان الرسول عليه السلام يقف فى هذا المكان .. ثم ينزل بساقيه ويتساند على هذه الصخرة بالذات .. ثم يدخل الغار وقد حنى رأسه قليلا .. ثم يضع طعامه .. من لبن الماعز .. وبعض الخبز .. ثم يجلس .. ثم يسند ظهره إلى داخل الغار ويتوجه إلى السماء .. فإذا جاء الليل .. دخل الرسول إلى عمق الغار وأسند ظهره وراح يفكر فى أمر الناس .. ماكان منهم وما سوف يكون .. ولكنه لايدرى ما الذى يدفعه إلى هذا المكان .. إنه مدفوع إلى هنا .

وعلى الغار كانت قبة .. انهدمت .. ولم يبق من هذه القبة البيضاء إلا جداران صغيران طليا بالجير الأبيض .. فيراهما الإنسان من مكة .. ومن عرفات ..

أما مدخل الغار فمسدود بالأحجار أيضاً فقد كان من عادة الناس أن يجيئوا إلى هذا المكان ، وهى رحلة شاقة .. وبعضهم كان يسقط ميتاً .. وبعضهم تحطمه الصخور . وبعض الناس كان يقيم الليالى الطويلة فى الغار .. والغار ضيق . والناس يتزاحمون . وبعضهم يتعبد . ولم يأمر الرسول أحداً بأن يفعل ذلك .

ولكن التعبد فى هذا المكان بدعة .. ومشقة . ولذلك سدت فتحة الغار حتى لا يذهب أحد إليه ..

* * *

قال لى الأمير فواز أمير مكة المكرمة إنه عندما كان فى السيارة مع الرئيسين السادات والقذافى قال للرئيس السادات . إن بعض الناس يذهب إلى جبل النور ، ويتعذب كثيراً حتى يصل إلى غار حراء . ويبيت فيه ، مع أن هذا ليس من الدين فى شىء .

وقال له الأمير فواز : إن الأخ أنيس منصور قد جاء أكثر من مرة حاجا ومعتمراً ليذهب إلى غار حراء .. ليكمل كتاباً له .. وأخشى أن يفعل نفس الشىء ..

وقال الأمير فواز : فإذا ذهب وأقام فى الغار ؟

قال الرئيس السادات : إذا فعل ذلك ضعه فى السجن !

ووجدت الغار مسدوداً بالطوب الأحمر .. حتى لا أدخل السجن !

* * *

ولا أخفى شعورى بالفزع والرجفة عندما وقفت فوق الغار .. مع أن الغار أحجاره ككل الأحجار .. أحجار عادية .. ولكن المعنى .. المناسبة .. التاريخ .. شىء يخيف ويهز ولا يجد الإنسان ما يقوله . فما الذى يمكن أن يقوله أحد بعد الذى قاله صاحب الغار .. ما الذى يمكن أن يقوله عنه وعن الذى قال .. إن صاحب الغار قد كان له رأى فى كل شىء .. وله وقفة عند كل قضية .

ومن الصعب أن يكون لك رأى إلى جانب رأيه أو حتى وراء رأيه أو اجتهاد فى الذى قاله .. صعب جدا ..

إننى قرأت ماكتبه الدكتور هيكل عن محمد ..

وماكتبه العقاد ..

وما كتبه طه حسين ..

كل واحد حاول أن يجد طريقاً مريحاً إلى المعنى الذى يريده .. فالدكتور هيكل حاول أن يعرض قضيته وأن يدافع عنها .. والعقاد حاول أن يعرض نفسيته وعقليته وأن يحللها وأن يقنع بها .. وطه حسين حاول أن يجد قصة .. حكاية .. يسهل عليه روايتها ، ويمتع الناس إذا تحدث عنها ..

ويبقى الرجل كبيراً عظيما لا نعرف من أين نأتى إليه .. الطرق إليه كثيرة جداً .. ومتشعبة ومتداخلة .. ومضيئة حتى لا تقدر أن تطبق عينيك .. والذى قاله لؤلؤ وماس وأحجار أخرى كريمة .. ولا تعرف كيف تصنع منها عقداً أو قرطاً أو خاتماً .. ولا تستطيع أن تدع شيئاً ، ولا تقوى على أن تأخذ كل شىء .. إنه شخصية باهرة .. كيف استطاع كل ذلك وحده .. كيف واجه الظلام بالنور ، والضلال بالهدى ، والقوة بالحق ، والعذاب بالرحمة ، والهوان بالإيمان ..

كيف هاجر من مكة .. كيف خرج منها ليعود ذلك فاتحاً لها محطماً أصنامها ، منظماً فوضاها ، ثم ليعود مرة أخرى إلى المدينة يلقى ربه ويدفن فيها .. ويكون له المكان الطاهر : قبره ومسجده وتكون قبور زوجاته وصحابته وأنصاره .

لقد دخلت قلب الكعبة عشر مرات ..
أربع مرات وراء الملك فيصل ..
وأربع مرات وحدى ..
ومرة وراء الرئيس جعفر نميرى ..
ومرة وراء الرئيس السادات ..
وغمرتنى الراحة وأحسست أن شرايينى من النيون الهادئ .. بلا حرارة ولا صوت .. وإننى فى حالة بين الحياة والموت .. فلا أنا حى أشعر بجسمى ، ولا أنا ميت بلا جسم .. ولكنى فوق وجسمى تحت .. وخط رفيع يربطنى

بالاثنين.. وعندما خرجت من الكعبة أخذت أشعر بجسمي قطعة قطعة حتى أصبحت ثقيلا على وجداني وعلى فكرى.. وأعيدت لى حياتى العادية..

وفى داخل الكعبة كل شيء مغموس فى ماء الورد.. ماء زمزم مع ماء الورد.. الأرض غسلوها، والجدران بللوها.. وفى ركن داخل الكعبة ستار..

وينصحك بعض حراس الكعبة أن تختفى وراء الستار وأن تطلب من الله أن يتوب عليك.. فهو ركن التوبة.. ودعوت الله.. وفى الظلام اصطدمت بالذى يركع والذى يسجد والذى يبكى والذى يبلل ملابسه فى ماء زمزم.

ولكن إحساسى فى مسجد الرسول شيء آخر.. من نوع آخر.. فهنا كان يقيم الرسول.. وهنا كانت زوجاته.. وفى بيت عائشة وعلى صدرها مات.. وفى ملابسه غسلوه وبها دفنوه.. وعند كتفى الرسول دفن أبو بكر.. وعند قدمى الرسول دفن عمر.. وكان المسجد النبوى صغيراً ـ ٢٠ متراً فى ٢٠ متراً ـ فقد كان عدد سكان المدينة بقراها السبع ثلاثة آلاف نسمة نصفهم من اليهود.. والنصف الباقى من الوثنيين ثم أصبحوا مسلمين بعد ذلك.. والناس لا يطوفون حول قبر الرسول.. كما يفعلون حول الكعبة.

ومن هنا كان يخرج من بيته. وهنا كان يصلى. وهنا كان يتحدث إلى الناس. وهنا خرج مريضاً. وهنا مرض. ولقى ربه.

لابد أن الرسول كان شخصية ساحرة. فالذى يقرأ ما قال، والذى يقرأ ما فعله الناس عندما سمعوا ما قال.. ولم يكن له مال ولا سيف. وإنما فقط ما يقول. وقدرته على إقناع الناس. بصدق شخصيته وأمانته والقدوة النادرة التى كان عليها.. ثم إنه كان بشراً ينتصر وينهزم. ويغضب ويمرض ويموت. والقرآن يقول: «إنك ميت وإنهم ميتون.. ويقول: وما محمد إلا رسول قد

خلت من قبله الرسل: أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم».

ومات الرسول ـ عليه السلام ـ فى يوم الاثنين وهو اليوم الذى ولد فيه، والذى هاجر فيه، وبلغ المدينة فيه، وفيه نزل الوحى، وفيه خرج من غار ثور، وفى هذا اليوم رفع الحجر الأسود..

إنه إنسان تعرفه وتحبه وتعجب به وتستريح له وتبكى عليه وتفرح به.. شاب ورجل وأب وداعية وشجاع وحكيم.. إنه بشر رائع..

* * *

وفى المدينة المنورة بحثت عن الشيخ إبراهيم العياشى، وهو أعلم علماء المدينة بآثارها. أريد أن أجلس إليه أن أسمع منه. وكان الرجل مريضاً.. فأحزننى ذلك.. وأسفت له. واعتذرت ولكنه أصر. فلم يخرج من بيته وقتاً طويلاً. ووجدها فرصة ليشم هواء منعشاً.

ـ قل يا شيخ إبراهيم: أريد أن أعرف بالضبط من أين دخل الرسول المدينة المنورة.. كيف. وماذا فعل يوماً بيوم. ومن الذين قابلهم وما الذى أكله وشربه. وأين صلى. وما الذى كان يرتديه وما الذى قاله؟

وقال الشيخ إبراهيم وهو لا يقوى على أن ينطق أو يحرك عنقه: أفعل إن شاء الله!

وعند أطراف المدينة. قال: من هنا دخل الرسول.. وهنا أقام بعض الوقت. واستقبله أقارب أمه من أسرة بنى النجار.. وغنوا له والطبول فى أيديهم: طلع البدر علينا.. وفى هذا المكان وعلى هذه الصخرة وقف رجل يهودى يصرخ قائلا:

جاء حظكم .. جاء الذى كنتم تنتظرون ..

وهنا انطلقت ناقة الرسول .. وهنا بركت .. وأقيم أول مسجد .. وهنا صلى ..

وظل الشيخ إبراهيم العياشى يتنقل من مكان إلى آخر .. ويقول : هنا بالضبط كانت معركة أحد .. هذا هو الجبل .. وهنا كانت معركة الخندق .. وهنا كانت بيوت اليهود .. وحدائقهم .. وهنا وتحت هذا الشارع المرصوف كانت قوات المسلمين .. وعند هذه البركان يقف الرسول ويحثهم على الجهاد .. وتحت هذه العمارة تماماً وقف اليهود يحاولون أن يجدوا وسيلة للتغلب على قوات المسلمين ..

يقول : لقد أمضيت عشرين عاماً أحقق فى موقعة بدر .. وحققتها على الخريطة ولكن حظى الأسود أوقع هذه الخريطة فى يد زوجتى فأحرقتها وكتباً أخرى .. ومن يومها وأنا لا أقوى على الكلام أو الحركة ..

قلت له : إنها زوجة سقراط ياشيخ إبراهيم .. هى أيضاً كانت لاتراه بين تلامذته حتى تجدها مناسبة لاحتقاره وتذكيره أنه لايعمل وأنه عالة على الناس . وأنه يمضى وقته يناقش الناس .. ويرسم لها خريطة الحياة المثلى .. بينما هو لا يملك قرشاً ولا منصباً ولا يدرى إن كانت زوجته قد حملت منه أو من غيره ـ أو كان زوجاً أو كانت له زوجة .. ثم تصب عليه الماء القذر لعل الماء يمسح الكلام من لسانه ومن آذان الناس .. ولكن الماء لم يفعل شيئاً ، ولا الزوجة فعلت شيئاً .. إنها بقيت رمزاً لضيق أفق الزوجة وتعاسة الفلاسفة والعلماء حتى بعثت زوجة سقراط مرة أخرى فى ثياب زوجتك !

ولو كان عندنا فى القاهرة بعض هذه الأمكنة لجعلنا القاهرة فى المقام الثانى بعد الكعبة !..

فالناس هنا فى القاهرة يتزاحمون على قبر الحسين وقبر السيدة زينب ، ونحن نعلم أنهما لم يدفنا فى القاهرة ـ ولكن لو قال أحد ما أقول فلن يصدقه أحد ..

ولكنى مع ذلك لا أرى ضرراً فى زيارة هذه الأمكنة وغيرها ما دامت تريح الناس . فالراحة شىء عسير المنال !..

وليس هذا شيئاً كثيراً فى جانب من قصة حياة يتيم عبقرى . بعد شهر من ولادته مات أبوه فى المدينة .. وبعد ست سنوات ماتت أمه فى مكة .. وبعد ثلاث سنوات مات جده عبد المطلب .. ثم جاءت سيرته الكريمة وأخلاقياته الفريدة فجعلته يتيما مرة رابعة .. الناس على شكل وهو على شاكلة أخرى ..

وترفع عن الناس وارتفع ومازال يعلو « جبل حراء » ويستقر فى غاره وينتظر حتى جاءته السماء بكل ما فيها من نور وحكمة لهداية كل الناس ..

كأن الأرض ارتفعت فأصبحت جبلا ..
الجبل لما ارتفع بالرسول : فإن الرسول قد ارتفع به ..
كأن الغار حضن من حجر .
كأنه « رحم » الكون كله .. والرسول وليد السماء والأرض ..
أو هدية السماء إلى الأرض ..
وسواء بقى الغار مفتوحاً أو مسدوداً فى وجه الهواء أو الشمس أو الناس .. فالمعنى أبقى والمكان أشرف والبناء المتواضع جدا يساوى أضعافه من المعانى الإنسانية ..

لا شىء يغير من معنى المكان وصاحب المكان ..
وقديماً احترقت الكعبة وانهدمت مرتين .. وبقيت الكعبة بمبناها ومعناها ..
وبعد ذلك أحرق المسجد النبوى مرتين .. وتهدم وجاءت صواعق السماء

تحوله تحت الأمطار إلى ركام .. ولكن بقى المكان وصاحب المسجد وصاحب القبر: رسول الله وإلى جواره أبو بكر وعمر ..

وليلة من سنة ٧٥٧ هـ صحا السلطان نور الدين زنكى من نومه فى حالة من الفزع فقد رأى رسول الله فى نومه يشير إلى اثنين من الغرباء ويقول له: انجدنى !.. انقذنى من هذين !

رسول الله يقولها للسلطان ؟!

وروى السلطان على حاشيته ما رأى .

وسألهم : ما العمل ؟

قالوا : تذهب إلى المدينة المنورة ..

وسافروا . وطلب السلطان من حاكم المدينة أن يأتيه بأسماء سكانها جميعاً . وأن يدعوهم لتحية السلطان . ووقف السلطان يتفحص وجوه الناس حتى لم يبق أحد . وسأل السلطان : ألم يبق فى المدينة أحد لم أره ؟ قالوا : بل هناك رجلان غريبان من أطيب الناس خلقاً وأكرمهم وأرحمهم . إنهما يتصدقان على الناس . وإنهما يصليان الليل والنهار !

وطلب السلطان أن يأتوا بهما . وجاءوا بهما . ووجد السلطان أنهما اللذان رآهما فى نومه . وأمسك بهما . وفتش بيتهما . فوجد على الأرض بساطاً . رفع البساط فوجد تحته سرداباً طويلا . واعترف الرجلان أنهما كافران من المغرب . وأنهما تقاضيا مبلغاً كبيراً من المال ليخطفا جثة الرسول . وضج الناس . وحوكم الرجلان . وأعدما .

وأمر السلطان بأن يحاط قبر الرسول بجدران من الرصاص حتى لا تمتد إليه يد شريرة ..

وشاء الله أن يحمى رسوله حيا وميتاً . وأن يبقى المبادئ الرفيعة لتكون كل مدينة منورة وكل سيرة له عطرة ، وكل طريق إليه ومنه إلى خير وسلام الناس ــ آمين

المحتويات



رقم الإيداع : ٨٨/١٦٥٩

٩٧٧ - ١٤٨ - ١٦٥ - ٧

مطابع الشروق